قراءة في كتاب

مفاهيم ينبغي أن تصحح

للشيخ محمد قطب

مفهوم الحضارة وعمارة الأرض
مفهوم الدنيا والآخرة
مفهوم القضاء والقدر
أضواء على المستقبل
مفهوم العبادة
مفهوم لا إله إلا الله

إعداد

محمد بن محمود البحيطي



قراءة في كتاب

((مَفَاهِيْمُ يَنْبَغِيْ أَنْ تُصَحَّحَ))

للشيخ محمد قطب

إعداد

محمد بن محمود البَحْطِيطِي

(أبو دجانة الباشا)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد دعا مجدِّد العصر، وشيخ المجاهدين، وإمام الموحدين في هذا الزمان، الشيخ الشهيد -كما نحسبه- أسامة بن لادن -رحمه الله- في آخر تسجيل له إلى الأمة قبل استشهاده، دعا إلى السعي لحفظ الأمة وثوراتها من الضلال والظلم، وقال إنَّ السبيل لذلك هو بالانطلاق في ثورة الوعي وتصحيح المفاهيم في شتى المجالات، ولا سيَّما الأساسية، وأهمُّها ركن الإسلام الأول. وذكر -رحمه الله- أن من خير ما كُتِب في ذلك هو كتاب «مفاهيم ينبغي أن تصحَّح» للشيخ محمد قطب.

واستجابةً للشيخ -رحمه الله- ووفاءً له أعددت هذه القراءة في الكتاب المذكور، حاولت فيها الوقوف على أهمِّ ما ذُكر فيه من معاني دون الإخلال بالمقصود.

والذي دعاني إلى ذلك ما عرف من تقاصر الهمم في هذا الزمان عن القراءة، فأحببت أن أقرِّب معاني الكتاب ومقصوده لمن تقاصرت همَّته عن قراءته كاملاً، أو شغله شاغل عن ذلك.

هذا وقد حافظت على لفظ المؤلف غالبًا، ووضعته بين قوسين لأميِّزه عن غيره.

وما يجب التأكيد عليه أنَّ ما قُمت به لا يغني عن أصل الكتاب، وإنما هو محاولة لإدراك بعض ما يصعب إدراكه كله، بل إنَّني أنصح كل مسلم بأن يقرأ هذا الكتاب، ويتدبَّر ما فيه من معاني ودرر، تعجز أي قراءة له أو اختصار عن استيعابها.

ولا شكَّ أن المفاهيم التي ينبغي أن تصحح أكثر بكثير مما ذكره المؤلف -وإن تناول حفظه الله أعظمها- لذا نرجو من الله أن يعيننا على استكمال هذا الجهد فيما بعد، بعرض مفاهيم أخرى تحتاج إلى تصحيح، وهذا ما ينبغي أن يبذل فيه العاملون للإسلام أقصى جهدهم، وجلَّ وقتهم، فهو أصل الداء الذي أصاب أمتنا وأقعدها عن أداء دورها بالاستخلاف في الأرض وعمارتها، وقيادة البشرية إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

فهذه دعوة -بل صرخة- لأهل الحق بأن يشمِّروا عن ساعد الجدّ لنشر المفاهيم الصحيحة، ومحاربة ما يناقضها من مفاهيم ضالة، وقد هيَّأ الله الأمر بهذه الثورات التي تتابع في بلدان المسلمين، وما قد يصاحبها من مساحة من الحرية بعد عقود من الظلم وتكميم للأفواه، حالت دون القيام بهذا الواجب على الوجه الذي ينبغي.

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

وهذا أوان الشروع في المقصود.

تناول المؤلف –حفظه الله– في كتابه بعد المقدمة خمسة مفاهيم رئيسة من مفاهيم الإسلام هي: مفهوم لا إله إلا الله، مفهوم العبادة، مفهوم القضاء والقدر، مفهوم الدنيا والآخرة، مفهوم الحضارة وعمارة الأرض. استغرق الحديث عن مفهوم لا إله إلا الله القسم الأكبر من الكتاب، ثم مفهوم العبادة، وذلك –كما قال المؤلف– لأنَّ «لا إله إلا الله هي الركن الأول والأكبر من أركان الإسلام، كما أن الانحراف الأكبر والأخطر في حياة المسلمين هو الذي وقع في مفهوم لا إله إلا الله، وكذلك مفهوم العبادة، فقد كان له في معناه الواسع الشامل صداه في عظمة هذه الأمة وعظمة منجزاتها، كما كان له في معناه الضيق الهزيل الذي صار إليه، صداه في الواقع المنحسر الذي يعانيه المسلمون اليوم».

«المقدمة»

وصف المؤلف في مقدمته واقع العالم الإسلامي اليوم وأنه كما قال يعيش «مرحلة من أسوأ مراحله التاريخية، إن لم تكن أسوأ ما مرَّ به في تاريخه كله. فلم تكن الأزمات الماضية تصيب المسلمين كلهم في وقت واحد، في كل بقاع الأرض، كما هو الحال في هذه المرة، ولم يكن الذل والهوان والضياع يشمل الأمة الإسلامية كلها كما يشملها في هذه المرة».

وذكر أن نكبة فلسطين هي أسوأ ما مرَّ بالمسلمين في تاريخهم، وأنها أسوأ من نكبة الأندلس، وأنها «تحدث وظل المسلمين منحسر في كل الأرض، والمذابح لا تكف عنهم في كل مكان... والمؤامرات تحاك للإسلام والمسلمين على نطاق القوى الدولية كلها مجتمعة... ثم الدعاة المسلمون يقتَّلون ويعذَّبون أبشع تعذيب في التاريخ، على يد حكومات تناوئ الدعوة الإسلامية، وترفض أن تحكم المسلمين بشريعة الله».

وذكر أنه «لا شيء في هذا الوضع يحدث اعتباطًا، ولا يمكن أن يحدث شيء واحد في حياة البشر اعتباطًا، إنما يجري كل شيء في حياة البشر حسب سنة الله التي لا تتخلف ولا تحابي أحدًا من الخلق».

وقال: «ومن سنة الله أنه لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أي ينحرفوا عن الطريق... ومن سنته أنه لا يحابي أحدًا لكونه من ذرية قوم صالحين».

وذكر أن حال الأمة تغيَّر «من الاستخلاف والتمكين والتأمين إلى الذل والضعف والهوان، والتشريد والتنكيل والتقتيل، حين صاروا إلى الصورة التي أنذرهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذرهم منها: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله؟ قال: أنتم يومئذٍ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل"»[(1)].

ثم تساءل: «فما الذي تغير؟ وكيف حدث التغيير؟».

فأجاب: «لقد حدثت انحرافات كثيرة في حياة المسلمين في مسيرتهم الطويلة خلال التاريخ».

وبين أن انحراف المسلمين في سلوكهم ليس «هو الانحراف الوحيد في حياة أولئك "المسلمين"، ولا هو الانحراف الأخطر في حياتهم... ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى الانحراف في "المفاهيم" كل مفاهيم الإسلام الرئيسية ابتداءً من لا إله إلا الله».

---

(1) أخرجه أحمد وأبو داود.

ثم قال: «ومن أجل ذلك يعاني الإسلام اليوم تلك الغربة التي تحدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ".[1]

ولقد عاد غريبًا بالفعل، غريبًا بين أهله أنفسهم، يتصورونه على غير حقيقته -فضلاً عن سلوكهم المنحرف عنه- ويستغربونه حين يعرض لهم في صورته الحقيقية كما جاءت في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخذت تطبيقها الكامل في حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم».

وأكد المؤلف على أن «أي جهد نبذله في تصحيح السلوك وحده -مع بقاء المفاهيم منحرفة- لن يؤتي ثماره كاملة، ولن يخرج الأمة من وهدتها التي انتكست إليها في عصرها الحاضر، إنما نحتاج أن نبذل جهدًا مضاعفًا لإزالة الغربة الثانية، كالجهد الذي بذلته الجماعة الأولى من المسلمين لإزالة الغربة الأولى للإسلام».

وقال: «وهذا الجهد المضاعف هو المهمة الملقاة اليوم على عاتق الصحوة الإسلامية، وأول ما نبدأ به من هذا الجهد هو تصحيح منهج التلقي».

ومنهج التلقي هذا كما ذكر -حفظه الله-: «من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم» وليس «مما دخل على هذا الفهم الواضح المستقيم من أفكار دخيلة ومنحرفة».

ثم بيَّن -حفظه الله- ما ينبغي فعله بعد ذلك بقوله: «فإذا صحَّحنا منهج التلقي، وصحَّحنا بناءً على ذلك ما انحرف في حسِّ المسلمين المتأخرين من مفاهيم الإسلام الرئيسية، بقيت علينا مهمة أخرى -لا تقل خطرًا- هي مهمة "التربية" على المفاهيم الصحيحة لهذا الدين. والتربية هي الجهد الحقيقي الذي ترجى معه الثمرة، ولكنه لن يؤتي ثمرته حتى يقوم على أساسه الصحيح».

(1) أخرجه مسلم.

«مفهوم لا إله إلا الله»

استعرض المؤلف في هذا الفصل مفهوم لا إله إلا الله بمعناه الصحيح الذي فهمه الجيل الأول –رضوان الله عليهم– وبيَّن أنَّ لا إله إلا الله لم تكن كلمة تقال باللسان وحسب، بل هي كلمة لها مقتضيات لا بدَّ من تحقيقها. وبيَّن في ثنايا كلامه مذهب المرجئة الذين جعلوا الإيمان هو مجرد التصديق والإقرار، وردَّ عليهم وأزال الكثير من شبهاتهم، مع بيانه لمذهب السلف الصالح –رضوان الله عليهم– القائل بأنَّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. كل ذلك بكلام فصيح بليغ، وأسلوب سهل متين، جمع بين الاستدلال بالأدلة الشرعية والعقلية معًا.

وقد تحدث في بداية الفصل عن أهمية هذا المفهوم فقال: «لا إله إلا الله هي الركن الأول والأكبر في الإسلام، قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج، وقبل كل شيء في هذا الدين، ومن يتدبَّر القرآن يلحظ ولا شكَّ الأهمية العظمى التي يوليها كتاب الله لقضية التوحيد، قضية لا إله إلا الله، بحيث تشغل الحيز الأكبر من القرآن كله، وإن كان التركيز عليها في السور المكية أشدّ».

وذكر أن «الاهتمام البالغ بقضية لا إله إلا الله في كتاب الله» لم يكن «سببه أن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة كانوا قومًا مشركين» وأن «استمرار الحديث عن هذه القضية في السور المدنية، بعد استقرار العقيدة، وقيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، والتزام ذلك المجتمع بتكاليف الإسلام ومقتضياته، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله، كل ذلك له دلالته الواضحة على الأهمية الذاتية لهذه القضية، حتى بالنسبة للمؤمنين الذين تخاطبهم الآيات المدنية مبدوءةً بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**».

وأوضح «أن قضية التوحيد –قضية لا إله إلا الله– ليست حديثًا يذكر لفترة من الوقت ثم ينتقل منه إلى غيره، إنما هي حديث يذكر ثم ينتقل معه إلى غيره، حديث لا ينقطع في أيِّ وقت من الأوقات».

وبيَّن أنَّ اهتمام القرآن بقضية لا إله إلا الله ليس لأنه «كتاب دين! إنما السبب في ذلك أنه الكتاب الذي يحدد منهج الحياة للإنسان، فحياة الإنسان لا تستقيم حتى يعلم "الحق" الذي خلقت به السماوات والأرض، وحتى تتوافق حياته مع ذلك الحق، فلا تنحرف عنه، ولا تشذ عن مقتضياته.

والحق أنَّه لا إله إلا الله هو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو المسيطر وحده، وهو المدبِّر وحده، وهو القيُّوم وحده، ولا أحد غيره يخلق أو يرزق أو يدبِّر الأمر.

ومقتضى ذلك كله أن يُعْبَدَ وحده، لا يشرك به غيره، ولا تُوَجَّه العبادة لأحد سواه».

ثم ذكر أن الله سبحانه «غنيٌّ عن العباد وعبادتهم، لا يؤثِّر في ملكه أن يعبده عباده أو يكفروا به... أما الإنسان فأمره مختلف فهو من ناحية لا يستغني عن فضل الله لحظة واحدة من حياته... ومن ناحية أخرى

هو عابد بفطرته، لا تمرُّ عليه لحظة من عمره لا يكون فيها عابدًا لشيء ما، واعيًا بذلك أم على غير وعي منه، وهو -في أي لحظة من حياته- بين أمرين اثنين لا ثالث لهما: إما أن يكون عابدًا لله وحده بلا شريك، وإما أن يكون عابدًا لشيء آخر غير الله، معه أو من دونه، كلاهما سواء! مما يسمِّيه الله -سبحانه وتعالى- "عبادة الشيطان"».

ثم تحدث المؤلف عن خطورة الشهوات وذكر أنها «وإن كانت مركبة في فطرة الإنسان لحكمة يريدها الله، فهي المداخل التي يستدرج الشيطان منها الإنسان ليبعده عن عبادة الله، بعدًا مؤقتًا كما يقع في المعصية... أو بعدًا كاملاً ينقطع فيه ما بينه وبين الله، في شرك أو كفر وجحود».

وذكر أن سعادة الدنيا والآخرة تنال بفضل الله عندما «يؤدِّي العباد حقَّ الله عليهم، من إفراده بالألوهية والربوبية، وتوجيه العبادة خالصةً إليه».

وأنه «من أجل ذلك يحتاج الإنسان دائمًا إلى لا إله إلا الله، يحتاج إليها وهو كافر أو مشرك ليصحِّح أصل اعتقاده، ويحتاج إليها وهو مؤمن ليتنبّه ويحذر، ويضيّق في نفسه مداخل الشيطان، لكي لا يفتنه عن العبادة الحقة الواجبة لله، وفي جميع الأحوال تؤدي لا إله إلا الله مهمة معينة في حياة الإنسان، ولا تكون "كلمة" تطلق في الهواء بغير مقتضى لها ولا أثر في واقع الحياة».

ثم ذكر أن «لا إله إلا الله هي دعوة الرسل جميعًا -صلوات الله وسلامه عليهم- من لدن آدم ونوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم وموقف الجاهلية تجاهها موقف واحد لم يتغيَّر خلال التاريخ: موقف الرفض والصدِّ والإعراض والجنوح».

وتساءل: «فما الذي فيها يدعو الجاهلية إلى اتخاذ هذا الموقف الموحَّد خلال التاريخ، وخاصة من جهة الملأ المستكبرين في كل جاهلية؟».

وأجاب أن ذلك لم يكن من أجل الكلمة «في ذاتها بغير مقتضى ولا مدلول» وإنما كان «من أجل مدلولها ومقتضاها؟»

وأضاف أن «أهمّ القضايا التي ركَّز عليها القرآن قضيتان رئيسيتان، تجمعان في طيَّاتهما جميع القضايا: قضية توجيه العبادة لله الواحد، وقضية اتباع ما أنزل الله في التحليل والتحريم».

وذكر أن القرآن لخَّص «موقف الشرك في هاتين القضيتين تلخيصًا دقيقًا في سورة الأنعام وسورة النحل:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾».

قال: «فالشرك يتمثَّل -في صورته الاعتقادية- في الاعتقاد بوجود آلهة أخرى غير الله، وفي صورته العملية في التوجُّه بالعبادة لغير الله، والتحريم والتحليل من دون الله. وهذا الذي من أجله رفض المشركون العرب أن ينطقوا بلا إله إلا الله».

ثم أوضح المؤلف أن «موقف الرفض والصدِّ لم يكن خاصًّا بالجاهلية العربية وحدها إنما هو أمر عام في كل الجاهليات التي كانت من قبل» وأضاف «أنَّ قصص الأنبياء تشير كلها إلى هذه الحقيقة التاريخية. ففي كل جاهلية أرسل إليها رسول نجد "الملأ" يسارعون إلى التصدِّي للرسول وتكذيبه ومحاولة تخذيله عن دعوته، ونجد "الجماهير" المستضعفة تتبع سادتها -إلا القليل منهم- وتصدّ عن السبيل».

وذكر المؤلف الفرق بين المحرك الذي يدفع الجماهير إلى الرفض وبين محرك الملأ.

فالجماهير قد ترفض ترك «مألوف عبادتها من الآلهة المتعددة، لأن الجماهير -في جاهليتها- تكون أكثر التصاقًا بعالم الحسّ، وهذه الآلهة المحسوسة القريبة تلبي انحرافاتها الجاهلية، وتجعلها تحسّ كلما رأتها أو لمستها أو قدمت لها القرابين أو شعائر التعبد، أنها قريبة من آلهتها قربًا ماديًّا محسوسًا.

وأما الملأ -وهم أكثر تنورًا وأكثر استعلاءً عن الجماهير- فإن الذي يحركهم لمحاربة الرسول المبعوث إليهم ليس قضية الآلهة المزعومة بقدر ما هو قضية "السلطة"».

وقال: «إن ولاءهم لهذه الآلهة صوريٌّ أكثر مما هو حقيقي، وإنَّ دفاعهم عنها -مهما بدا حارًّا- لا ينبعث من الاعتقاد بألوهيتها بقدر ما ينبعث من كونها هي الأداة التي يستعبدون باسمها الجماهير، ويعطون أنفسهم سلطانًا مقدَّسًا مستمَدًّا من قداستها في نفوس الجماهير.

أما القضية الحقيقية بالنسبة إليهم فهي قضية الحاكمية: من يحكم هذه الجماهير؟ هم، أم الله -سبحانه وتعالى- عن طريق تحكيم شريعته؟.

هذه هي القضية الحقيقية التي تستفز الملأ في كل جاهلية ليحاربوا دعوة لا إله إلا الله.

إن السلطة التي في أيديهم، سلطة التشريع التي يحكمون بها الجماهير ويستذلونهم بها ليست سلطتهم أصلاً، إنما هي حق الخالق الرازق المنعم المتفضل، الذي خلق، ثم رزق وأنعم وتفضل، فكان من حقه وحده أن يحل ويحرم، وأن يبيح ويمنع، وليس لأحد غيره أن يشرِّع -أي يحلّ ويحرّم- إلا أن يكون خالقًا مثل الله، رازقًا مثل الله، منعمًا متفضلاً مثل الله، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾...

ولكن "الملأ" يتجاهلون هذه الحقيقة، ويتجاهلون أسسها "الاعتقادية" ومقتضياتها العملية، حين يستبدون بالسلطة –سواء حكموا بالدكتاتورية الصريحة أم من وراء ستار كما هو الحال في "الديمقراطية"[1]، وسواء استجابوا لشهوات الجماهير وأهوائهم أم اكتفوا بشهواتهم هم وأهوائهم[2]– ويظلون يؤصلون سلطانهم "بأنظمة" للحكم و"دساتير" عرفية أو مكتوبة تجعل لهم الحق في التحليل والتحريم، والإباحة والمنع، حتى إذا جاء رسول من عند الله[3] يقول: "لا إله إلا الله" "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" يتغيّر الموقف كله».

وأضاف: «إن الملأ قد يختصمون فيما بينهم أيّهم الذي يتولى "السلطة" ويستعبد الجماهير. وقد يختصمون فيما بينهم وبين الجماهير –كما حدث في الديمقراطية– أي قدر من السلطة يحتفظون به في أيديهم، وأي قدر يسقطونه فُتَاتًا تتلهَّى به الجماهير. أما حين يأتي الرسول الذي يقول: "لا إله إلا الله" "اعبدوا الله ما لكم من إله غيره" فإنَّ جوهر القضية يتغيَّر، وتصبح القضية هي نزع السلطة أصلاً من أيدي الملأ، بل من أيدي البشر جميعًا، وردّها إلى الله صاحب السلطان، صاحب الحق في المنع والإباحة، والتحليل والتحريم، ومن أجل ذلك يفزع "الملأ" من دعوة لا إله إلا الله أضعاف أضعاف ما يفزعون من منازعيهم على السلطان الأرضي، ويجنِّدون طاقتهم كلها لمحاربة الدعوة، ويستخدمون الجماهير ذاتها من بين الأدوات التي يستخدمونها لهذه الحرب، بتزييف الحقائق لها تارة، وتارة بالإرهاب»[4].

ثم عرج المؤلف على واقع العرب الذين نزل فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج منهم ذلك الجيل الفريد في تاريخ البشرية.

ذكر أنهم كانوا «شتيتًا متناثرًا لا يأتلف ولا يتجمَّع رغم وجود كل عوامل التجمُّع».

وأنَّ الشرك فيهم والذي دعا القرآن بلا إله إلا الله لتخليصه، لم يكن لونًا واحدًا وإنما ألوانًا متعددة «تندرج في النهاية تحت هاتين القضيتين الرئيسيتين: تعدد الآلهة واتباع غير ما أنزل الله.

كانت القبيلة ربًّا معبودًا... وكان عرف الآباء والأجداد ربًّا معبودًا... وكان الهوى والشهوات أربابًا معبودة».

---

(1) أحال المؤلف هنا على فصل "الديمقراطية" من كتابه "مذاهب فكرية معاصرة" حيث بيَّن كيف تحكم الرأسمالية من خلال الديمقراطية، وكيف تحقق جميع مصالحها بينما يتوهَّم "الشعب" أنه هو مصدر السلطات.

(2) وعلَّق المؤلف هنا بقوله: في الديمقراطية بالذات يستجاب لكثير من شهوات الجماهير الهابطة، كجزء من اللعبة الضخمة، لتمرير مصالح الرأسمالية الحاكمة وإيهام الجماهير أنها هي صاحبة السلطان.

(3) ومثل الرسل هنا أتباعهم في كل زمان ومكان، فالحق هو الحق، والجاهلية هي الجاهلية، وإن اختلفت صور وأساليب الصراع.

(4) وتارة بأنصاف الحلول كما قال رهط من مشركي قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يَا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فاتَّبِعْ دِينَنا، ونتَّبِعْ دِينَك ونُشرِكك في أمرِنا كلِّه، تعبدُ آلهتنا سَنة، ونعبدُ إلهَكَ سَنة.

ثم أوضح التحوُّل الهائل الذي حدث في نفوس المؤمنين في كل جوانب حياتهم حين خلصت نفوسهم «بلا إله إلا الله من تلك الألوان من الشرك»

ثم أخذ المؤلف يستعرض ويحشد الأدلة النقليَّة والعقليَّة على قضية في غاية الأهميَّة وهي أساس الكثير من الوهن والخذلان الذي أصاب الأمة وهي ما توهمه «كثير من الناس أن لا إله إلا الله كانت مطلوبة بكل مقتضياتها، ومؤثرة في ذلك الجيل الفريد بكل آثارها لأنهم كانوا –قبل ذلك– مشركين، وأنهم لو كانوا في غير هذا الوضع لكان كل المطلوب منهم هو التصديق والإقرار».

وذكر أن تلك «هي الجناية الكبرى التي جناها الفكر الإرجائي[1] على الأمة الإسلامية، والتي ظلت –مع عوامل أخرى– تفرّغ لا إله إلا الله من محتواها الحقيقي تدريجيًّا حتى أحالتها في النهاية كلمةً خاويةً من الروح».

وشرع قبل أن يناقش هذا الوهم في استعراض «صورة لا إله إلا الله مع المؤمنين في المدينة».

وذكر أن حديثها «لم ينقطع في المدينة، لأنه ليس حديثًا يذكر في مبدأ الطريق ثم ينتقل منه إلى موضوع آخر، إنما يذكر في مبدأ الطريق ثم ينتقل معه إلى كل موضوع آخر».

ثم شرع في استعراض «نماذج من السور المدنية تبيِّن هذا الأمر».

وفي حديثه عن سورة المائدة قال إن هذه السورة «نصَّت نصًّا صريحًا على وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون غيرها من الشرائع كافَّة، وبيَّنت أنَّ الحكم نوعان اثنان لا ثالث لهما ولا واسطة بينهما: إما حكم الله وإما حكم الجاهلية:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وأنَّ من لم يحكم بما أنزل الله فحكمهم عند الله أنهم الكافرون الفاسقون الظالمون:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾».

واستطرد المؤلف في حديثه عن هذه القضية الهامة –الحاكمية– فقال: «وإذا كانت السور المكية قد ركَّزت على الجانب الاعتقادي... وعلى الجانب الأخلاقي كذلك، وما كان قد فرض في مكة من الشعائر

---

(1) والمرجئة فرق كثيرة سمّوا بذلك لأنّهم أخّروا الأعمال فلم يدخلوها في مسمى الإيمان، والإرجاء في اللغة التأخير، وغلاتهم –وهم الجهمية– يقولون: إن الإيمان هو المعرفة، وبعضهم –وهم الكرَّامية– قال: بل هو الإقرار باللسان، وبعضهم قال: هو التصديق وجعل الإقرار شرط لإجراء أحكام الإسلام في الدنيا –وهم الأشاعرة والماتريدية– وبعضهم قال: هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان –وهم مرجئة الفقهاء– وهؤلاء هم أقرب هذه الفرق إلى أهل السنة. ومذهب أهل السنة في الإيمان أنه قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأرادوا بالقول قول القلب واللسان، وبالعمل عمل القلب والجوارح، وقد حكى غير واحد من الأئمة الإجماع على ذلك.

التعبدية، فإنَّ السور المدنية قد ركَّزت تركيزًا شديدًا على قضية الحاكمية، والالتزام بتحكيم شريعة الله، واعتبار ذلك هو المحكّ لصدق الإيمان، مع التوكيد على الجانب الأخلاقي، والعبادات الأخرى التي فرضت في المدينة.

ولكن من الخطأ البالغ أن نظنَّ أنَّ قضية الحاكمية، أي تقرير كون الحاكمية لله وحده، وأن حق التشريع من تحليل وتحريم وإباحة ومنع هو حق خالص لله لا يشاركه فيه البشر، وأن التشريع بغير ما أنزل الله –معه أو من دونه– شرك، وأن إطاعة الذين يشرِّعون بغير ما أنزل الله شرك.

من الخطأ الظن بأن هذه القضية –بتفصيلاتها تلك– قد تقررت في المدينة حين بدأت التشريعات تتنزل ليقيم المسلمون حياتهم عليها، بل لقد تقررت تقريرًا واضحًا حاسمًا في مكة، في أكثر من سورة مكية، كأصل من أصول الاعتقاد بلا إله إلا الله، لا بوصفها التزامًا سلوكيًّا فحسب».

واستدل بأمثلة من القرآن على ما يقول وكان منها قوله تعالى في سورة الأعراف –المكيَّة–: **﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾**.

وقال إنَّها «تقرِّر أمرين في وقت واحد: أنَّ الأمر لله وحده بصيغة القصر، الأمر على إطلاقه غير محدد بنطاق معين ولا مجال معين، الأمر في السماوات والأرض وفي حياة البشر كذلك... أمَّا الأمر الآخر الذي تقرره الآية فهو كون حق الحاكمية في السماوات والأرض وفي حياة البشر مستمدًّا من الخالقية، أي من القدرة على الخلق، فالذي له القدرة على الخلق هو وحده صاحب الأمر».

واستدل أيضًا بآية الشورى –المكية– : **﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾**.

وقال: «فهي تقرر ذات المبدأ، وهو ردّ الحاكمية لله في كل شيء يعرض للناس في حياتهم، فقوله تعالى: **﴿مِنْ شَيْءٍ﴾** معناها جنس الشيء وعمومه، أي كل شيء على إطلاقه، وكل شيء على إطلاقه حكمه إلى الله في كونه حلالاً أو حرامًا أو مباحًا أو مكروهًا أو مندوبًا».

ثم ختم استدلاله بقوله: «ومن ذلك يتبيَّن أنَّ قضية الحاكمية لم تبدأ في المدينة بعد نزول التشريع، إنما بدأت في مكة في وقت تأصيل العقيدة وبيان مقتضيات لا إله إلا الله، وجاءت الأحكام القاطعة بعد ذلك في المدينة تقرر أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وأنه لا يعتبر أحد مؤمنًا حتى يحتكم إلى الله ورسوله، تطبيقًا وتوكيدًا لما تقرر في مكة وقت تأصيل العقيدة».

وبعد عرض المؤلف لجانب التكليف الرباني تناول «الجانب التطبيقي في حياة المؤمنين في المدينة، كيف تلقوا الأمر الرباني وكيف نفذوه».

فقال: «لم يكن أحد في ذلك الجيل المتفرد يتلبث حتى يسأل: هل هذه الأوامر الربانية ... مُلْزِمَة؟! هل هي داخلة في مسمى الإيمان أم زائدة عليه؟ هل يكفي التصديق بأنها من عند الله، أم ينبغي تنفيذها كذلك؟! وهل يكون الإنسان مؤمنًا إذا لم يعمل بشيء منها على الإطلاق؟».

ثم شرع المؤلف في النظر «في هذه القضية الخطيرة –قضية مقتضيات لا إله إلا الله– من ثلاثة منطلقات مختلفة، تؤدي كلها إلى نتيجة واحدة في النهاية:

أولاً: هل يمكن أن يؤدي هذا الدين أهدافه التي نزل من أجلها إذا كان المطلوب كله هو التصديق والإقرار، أو إذا كان التصديق والإقرار –وحده– يكفي لإعطاء صفة الإسلام، لا في الدنيا وحدها، بل في الآخرة كذلك؟!

ثانيًا: هل كان ما يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله، تطوعًا من عند أنفسهم، غير واجب عليهم؟!

ثالثًا: هل يمكن في واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشيء ثم يكون سلوكه الواقعي كله مغايرًا لمقتضيات ذلك الإيمان، أو مناقضًا له؟!».

وبدأ بالمنطلق الأول فتساءل: «لماذا يرسل الله الرسل إلى البشرية، ولماذا ينزل معهم الرسالات؟».

وذكر أن الله –سبحانه وتعالى– قد تكفَّل بالإجابة على هذا في كتابه المنزَّل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾**.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾».

قال: «فإحدى الآيتين تقرِّر أن إرسال الرسل لا يتم من عند الله لمجرد التبليغ والإعلام، بحيث يسع أي إنسان أرسل إليه رسول أن يقول: لقد بلغني الأمر وعلمته. إنما ينبغي أن يقول: لقد بلغني الأمر وعلمته وأطعته، ليكون بذلك قد استجاب للرسول المرسل إليه، وحقق الهدف الذي من أجله أرسل.

والآية الأخرى تبيِّن ذلك الهدف وتحدده، وهو إقامة حياة الناس بالقسط، وهي عبارة موجزة شاملة جامعة تفصلها آيات القرآن الأخرى (والسنة المطهرة كذلك) تفصيلاً دقيقًا محددًا غير متروك لأهواء البشر، ذلك أن تحديد القسط لو ترك لأهواء الناس لفسد كل شيء».

وقال: «ومقتضى الآية المشار إليها آنفًا إن إرسال الرسل وإنزال الكتاب ليس لمجرد التبليغ والإعلام، إنما لتحقيق هدف عملي واقعي في حياة الناس هو إقامة شريعة الله ومنهجه، وإخضاع الناس لهذه الشريعة وذلك المنهج، لأنَّ هذا هو السبيل الوحيد الذي يؤدي إلى قيام الناس بالقسط».

وأوضح المؤلف أن هذا المعنى وإن كان «متحققًا في جميع الرسالات من لدن آدم ونوح إلى محمد صلى الله عليه وسلم فالرسالة الأخيرة لها وضع خاص، وتكاليف خاصة، غير الرسالات السابقة جميعًا، وبالإضافة إليها جميعًا.

يقول –سبحانه وتعالى– عن الرسالات السابقة وأهلها: **﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾**».

قال: «فإذا كانت الأمم المؤمنة السابقة كلها قد كلفت أن تعبد الله "مخلصين له الدين حنفاء"، وتستقيم على الدين وتكاليفه في حدود ذاتها فحسب، فإن الأمة المسلمة قد كلفت هذا التكليف ذاته، ثم كلفت فوق ذلك أن تنشر هذا الدين في كل بقاع الأرض، خلفاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم وامتدادًا له، وأن تجاهد حتى يكون الدين كله لله».

وقال: «ومقتضى ذلك أن يكون العمل المطلوب من هذه الأمة بعد التصديق والإقرار أضخم بكثير، وأخطر بكثير من كل عملٍ طلب من أمة سابقة في التاريخ».

ومن هذا المنطلق الذي تحدث عنه المؤلف انتقل إلى المنطلق الثاني وتساءل: «هل كان ما يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام في تطبيق مقتضيات لا إله إلا الله، تطوعًا من عند أنفسهم، غير واجب عليهم؟».

وأوضح المؤلف «نقطة قد تختلط على الأذهان، فيما بين التطوع والتكليف بالنسبة لجيل الصحابة –رضوان الله عليهم–»

وبيَّن «أن الذي تفرد به الجيل الفريد لم يكن هو قيامه بالتكاليف الربانية، فذلك أمر مفروض على كل الأجيال، ومطلوب من كل الأجيال، إنما تفرد ذلك الجيل بالدرجة العالية العجيبة التي نفذ بها تلك التكاليف».

وضرب على ذلك أمثلة من حياة الصحابة رضوان الله عليهم وقد ألزموا أنفسهم بالمندوبات وكأنها فروض.

ثم شرع في النظر «في التكاليف التي قاموا بها لأنها تكاليف، لا المندوبات التي التزموا بها وفرضوها على أنفسهم كأنها فروض».

وذكر متسائلاً مجموعة من الأمثلة بيَّن فيها بعض التكاليف التي قام بها الجيل الأول: كالتزامهم بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وجهادهم في سبيل الله، وتحقيقهم للعدل الرباني في الأرض.

ثم قرر أن قيامهم بهذه التكاليف لم يكن «تطوُّعًا زائدًا على أصل الإيمان» وإنما «كان يملأ نفوسهم –كما تعلَّموا من كتاب الله ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم– أن القيام بهذه التكاليف هو مقتضى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

وفي حديثه عن المنطلق الأخير تساءل: «هل يمكن في واقع النفس البشرية أن يؤمن إنسان بشيء، ثم يكون سلوكه الواقعي كله مغايرًا لمقتضيات ذلك الإيمان أو مناقضًا له؟!».

وأجاب بأنها «حالة مستحيلة في واقع النفس البشرية، لم يتحدث عن مثلها أحد في التاريخ، إنما الذي يمكن أن يوجد بالفعل هو وجود إيمان بشيء ما، ووجود بعض التصرفات مخالفةً لمقتضى ذلك الإيمان. هذه حالة طبيعية، بل هي الحالة الغالبة على تصرفات البشر».

وأوضح أسبابها فقال: «هي الجنوح الموجود في النفس البشرية نحو التفلُّت من التكاليف استجابةً لدوافع تعتمل في باطن النفس».

وأضاف أنَّ الله وضع في الكيان البشري شهوات –أو دوافع– ووضع في طريق هذه الدوافع قيود، وذلك لم يكن عبثًا وبلا غاية تعالى الله عن ذلك.

وقال إن «الحلال والحرام كله هو القيود التي يضعها الدين في طريق الشهوات ليحدد مقدارها أو يحدد مسارها، وفضلاً عن ذلك فهناك تكاليف أخرى تضع قيودًا من نوع آخر في طريق الشهوات فتحدد مقدارها ومسارها، كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وأخلاقيات لا إله إلا الله، وعلى القمة من ذلك كله الجهاد في سبيل الله».

وعن مهمة هذه القيود قال: «وتؤدي القيود مهمة مزدوجة في حياة الإنسان، تحدد المقدار الذي يستجيب به الإنسان لدوافعه وشهواته، فتحبس قدرًا من الطاقة أن يتبدد كله في المجال الحسيّ، ثم تحدد مسار هذه الطاقة فترفعها عن المجال الحسيّ الخالص إلى مجال القيم، التي ترسم الوجود الأعلى للإنسان».

ثم قال: «وهكذا بين الدوافع والضوابط يتوازن كيان الإنسان، ويحقق غاية وجوده وهو في أحسن تقويم».

وذكر أنه مع ذلك «لا ينضبط تمامًا في كل حالة، ولا يستمر على توازنه في كل حالة».

لأن "كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون". [1]

(1) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجة والدارمي.

ثم قال: «وهنا تحدث المعصية، تحدث بأحد سببين، أو بهما معًا في وقت واحد: إما اشتداد ضغط الدوافع على الإنسان، وإما ضعف الضوابط في لحظة من اللحظات، أو باجتماع السببين معًا في وقت واحد»

وذكر أن «الإيمان بالله واليوم الآخر هو أقوى الأدوات المعينة للإنسان على مقاومة ضغط الشهوات، وبمقدار ما يكون الإيمان قويًّا وراسخًا تكون قدرة الإنسان على الانضباط في داخل الحدود التي رسمها الله، أي تكون الطاعة لأوامر الله، والقيام بالتكاليف التي فرضها الله».

ثم شرع المؤلف في مناقشة ما استدل به المرجئة «الذين يقولون: إن التصديق والإقرار هما كل متطلبات الإيمان».

وأوضح مع ذلك معنى هامًا وهو أن «المرجئة القدامى –على كل ما أحدثوه من انحراف في فهم الإسلام– لم يتطرَّقوا قط –ولم يصلوا قط– إلى إسقاط الصلاة أو التحاكم إلى شريعة الله كما أسقطها المرجئة المحدثون، لأنه لم يكن يدور بخلد أحدٍ خلال القرون الثلاثة عشر الأولى أن هناك إنسانًا واحدًا في الأرض الإسلامية يمكن أن يسمى مسلمًا في الحياة الدنيا، ويظل على قيد الحياة، وهو يهمل الصلاة ثلاثة أيام متوالية، أو يتحاكم إلى غير شريعة الله...

أما المرجئة المحدثون فلم يقفوا عند حد، لقد ولدوا في مجتمع لا يحكم بشريعة الله، وفي مجتمع لا تؤدى فيه الصلاة (ولا غيرها من العبادات)، ثم تناولوا الجرعة المسمومة من الفكر الإرجائي، فمدوا فكرهم حتى شملوا به كل شيء من مقتضيات لا إله إلا الله، فقالوا: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحدًا من أعمال الإسلام، فتجاوزوا الحاجزين الأخيرين اللذين كان المرجئون القدامى قد وقفوا عندهما: حاجز الصلاة وحاجز الشريعة، فوصفوا المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله بأنها مجتمعات إسلامية، ووصفوا الناس –كل الناس– بأنهم مسلمون، ما داموا يقولون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ثم ذكر المؤلف الحديث الذي يستدل به المرجئة: "من قال لا إله إلا الله دخل الجنة".

وبين أنه: «خصص بأحاديث أخرى من قول الرسول صلى الله عليه وسلم فاشترط فيه البراءة من الشرك. يقول عليه الصلاة والسلام...: "من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة"[1]».

ثم قال: «وبالمقابلة والجمع بين الحديثين يتحدد لنا في شأن لا إله إلا الله أن البراءة من الشرك هي شرط قبولها عند الله في الآخرة، وقد حدد الله ذلك تحديدًا قاطعًا في كتابه المنزل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ**﴾».

---

(1) أخرجه مسلم.

ثم أردف بقوله: «والشرك أنواع يتحدث الخطباء والوعاظ عن بعضها –الذي لا يغضب ذوي السلطان– ويهملون الحديث عن بعضها الآخر.

فالتوجُّه لغير الله بشيء من ألوان العبادة كالدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة أو النذر أو الذبح شرك لا شكَّ فيه، وما أكثر ما يتكلم الخطباء في هذا اللون من الشرك...

والتشريع (أي التحليل والتحريم) بغير ما أنزل الله، والرضى بذلك التشريع، شرك لا شكَّ فيه، ولكن الناس في قرنهم الأخير هذا قد جَهِلُوا –أو جُهِّلُوا– هذه الحقيقة الخطيرة، فلم يعودوا يفرِّقون بين المعصية والشرك، وصاروا ينظرون إلى هذا اللون من الشرك على أنَّه معصية مغفورة، إن لم ينظروا إليه على أنه ضرورة مباحة لا إثم فيها. بل إن لم يكن في حسهم –من وراء ذلك– أنَّها تقدُّمٌ وتحضُّرٌ وانعتاقٌ من الأغلال».

وتساءل: «كيف حدث ذلك؟!».

فأجاب بأن الغزو الصليبي (واليهودي في أطوائه) قد «نحّى الشريعة الإسلامية من كل بلد دنّستها قدماه» وسلط «على الناس ما يصرفهم حتى عن الصلاة والصوم، ثم قيل للناس: لا بأس عليكم! ما دمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون... ثم جاء المرجئة المحدثون –بما تناولوا من سموم الفكر الإرجائي– فقالوا: لا بأس على الناس! فالإيمان هو التصديق والإقرار، ومن قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحدًا من أعمال الإسلام».

ثم عاد المؤلف ليذكر بأن «قضية التشريع هي من قضايا العقيدة الرئيسية» وأن «محك صدق الإيمان –بعد اكتمال الدين– أصبح هو التحاكم إلى شريعة الله بعد سلامة الاعتقاد وأداء العبادات».

وخلص إلى أن «قضية التشريع ترتبط ارتباطًا مباشرًا وثيقًا بلا إله إلا الله».

ثم ذكر قول «الفقهاء في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾**» بأن «القاضي الذي يحكم بغير ما أنزل الله في القضية المعروضة عليه لأنه ارتشى من أحد الخصمين لا يكفر بذلك وإن كان آثمًا يتعرض لسخط الله وغضبه» وأن هذا كما ذكروا كفر دون كفر.

ثم قال: «ولكن ذلك كله لا ينصرف إلى التشريع بغير ما أنزل الله، فالحكم في قضية معروضة بغير ما أنزل الله، بدافع من الدوافع المذكورة في كتب الفقه، بغير استحلال لذلك الحكم، هذا شيء، والتشريع بغير ما أنزل الله شيء آخر مختلف بالمرَّة؛ لأنَّه في الحالة الأولى لا ينقض اعترافه وإقراره بأن شرع الله هو المرجع الذي يرجع إليه في الحكم وإن خالف في التنفيذ. أما في الحالة الثانية فهو يضع من عند نفسه –بغير سلطان من الله– شرعًا آخر مخالفًا لشرع الله، ثم يقول –بلسان الحال أو بلسان المقال– لا تنفذوا شرع

الله، ولكن نفذوا هذا الشرع الذي وضعته لأنه مماثل لشرع الله، أو لأنه أفضل من شرع الله، أو لأنه أنسب من شرع الله».

ثم بيَّن حقيقةً يتجاهلها الكثيرون، ويجب أن يصدع بها الصادقون وهي أن: «هذا الأمر لم يختلف الفقهاء في تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة».

وليس ذلك فقط بل ذكر أمرًا «آخر لم يختلف الفقهاء في تاريخ الإسلام كله على أنه كفر مخرج من الملة، هو الرضى عن علم وإرادة بشرع غير شرع الله، ولا يدخل في ذلك الإكراه بطبيعة الحال لأن الإكراه ينتفي فيه الرضى».

ثم عاد ليؤكد على أمر في غاية الأهمية يصف واقعنا المعاصر وصفًا دقيقًا فقال: «هذا الارتباط الوثيق بين لا إله إلا الله وتحكيم شريعة الله، ظل ثلاثة عشر قرنًا متوالية بديهية في حسِّ المسلمين، لا يتصورون الإسلام من غيرها، ولا يتصورون في مسلم أنه يكون مسلمًا من غيرها، وكان حكم الشريعة القائم بالفعل في الأرض يعطي القضية ثقل الأمر الواقع، فلا يفكر الناس في غيره، ولا يفكرون في أن غيره يمكن أن يقع. وكان الفارق –في حسِّ المسلمين– بين الإسلام والكفر، وبين المسلمين والكفار أمران رئيسيان، فضلاً عن أمور كثيرة أخرى، هما الصلاة وشريعة الله. فالمسلمون يصلُّون، ويتحاكمون إلى شريعة الله، والكفار لا يصلُّون، ولا يتحاكمون إلى شريعة الله. ولكن الأمر تغيَّر كثيرًا في حسِّ المسلمين بعد الاحتلال الصليبي لبلادهم وتنحية شريعة الله عن الحكم، ثم تسليط كل العوامل التي تخرج المسلمين من الإسلام... ثم جاء حكام يحملون أسماء إسلامية، ويحكمون بغير ما أنزل الله، ينوبون عن الاحتلال الصليبي في تنفيذ كل أهدافه، ويقال للناس إنهم مسلمون، وإن "الضرورة" تقتضي أن يحكموا بغير ما أنزل الله. ثم يزداد الناس بعدًا عن الإسلام –بفعل كل العوامل المسلَّطة عليهم– فيقال لهم صراحة: إن الرقي والتحضُّر والتقدُّم والتحرُّر والانطلاق يقتضي تنحية شريعة الله عن الحكم، واستيراد النظم والمبادئ والدساتير والقوانين من أوربا المتحضرة –من غربها أولاً ثم من شرقها بعد ذلك– وإن الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنًا لا يمكن –ولا يجوز– أن تحكم حياة الناس اليوم، وإن "التطور" لا بدَّ أن يأخذ طريقه، وإن الدين هو "الأغلال" التي تعوِّق الناس عن الانطلاق، وإن مصيرنا –رضينا أم أبينا– هو مصير أوربا، التي لم تتقدم إلا بعد أن نبذت الدين».

ثم أوضح المؤلف أن لا إله إلا الله أُفرغت من محتواها كله ومن مقتضاها كله، وأن «التفلُّت من التكاليف، وعدم كفاية التذكير، والترف المتلف، والسلبية الصوفية، والاستبداد السياسي، والفكر الإرجائي، كل واحد من هؤلاء قد فعل فعله في إفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحي على المدى الطويل».

ثم شرع المؤلف في تناول «الواقع الذي يعيشه "المسلم المعاصر"».

تحدث عنه من زاويتين: «الأولى: هي تحديد الحد الأدنى الذي يحفظ للناس إسلامهم في الواقع المعاصر الذي لا تُحَكَّم فيه شريعة الله. والزاوية الثانية: هي طريق الخلاص للناس اليوم مما هم فيه من أوضاع لم يسبق لها مثيل -في سوئها- في تاريخ الإسلام كله».

هذا «الواقع المعاصر، حيث لا تحكم شريعة الله، وإنما تحكم بدلاً منها شرائع الجاهلية، سواء اسمها الديمقراطية الليبرالية أو اسمها الاشتراكية أو اسمها الشيوعية، أو أي اسم من الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان».

وذكر أن الزاوية الأولى «قد بيَّنها الحديث الصحيح بصورة حاسمة لا تحتمل التأويل. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمَّته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره. ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل".[1]

ويقول صلى الله عليه وسلم: "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون. فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع"».[2]

قال: «فالحديث الأول يثبت الإيمان -بدرجات مختلفة- لكل من جاهد حكم الجاهلية بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، وينفيه نفيًا حاسمًا عمَّا وراء ذلك. والحديث الثاني ينفي الإيمان كذلك عن كل من رضي عن حكم الجاهلية وتابعه».

وأكد المؤلف في هذا السياق أنه يبيِّن «ذلك ليعرف الناس أين هم في ميزان الله»، لا ليصدر به حكمًا على أحد من الناس.

ثم وصل المؤلف في حديثه «إلى النقطة الأخيرة في هذا الفصل، وهي طريق الخلاص».

فقال: «إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية، وبصفة خاصة مفهوم لا إله إلا الله» بكل ما تحمله هذه الكلمة من مقتضيات، وذكر أن الأمة قد جربت على مدار قرن من الزمان الكثير من الحلول فلم تجد نفعًا بل «زادت مشاكلنا كلها حدَّةً، وزادت أزماتنا كلها تعقيدًا، وزدنا ضعفًا وهوانًا على الناس».

وبيَّن المؤلف في ختام كلامه مقصودَه من مفهوم لا إله إلا الله فقال: «لا إله إلا الله التي ندعو إليها ليست هي التي دعا إليها المرجئة القدامى أو المُحدَثون... إنما لا إله إلا الله التي ندعو إليها هي التي أنزلها

---

(1) أخرجه مسلم.

(2) أخرجه مسلم.

الله في كتابه المنزَّل، وعلَّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه، ومارسها السلف الصالح رضوان الله عليهم. إنها لا إله إلا الله ذات المقتضيات: توحيد الاعتقاد، توحيد العبادة، توحيد الحاكمية، التخلُّق بأخلاق لا إله إلا الله، القيام بالتكاليف الربانية التي تشمل طلب العلم، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وإعداد العدة لأعداء الله، ونشر الدعوة في الأرض، والجهاد في سبيل الله».

ثم أردف قائلاً: «وحين تبرأ لا إله إلا الله في قلوب الناس مما أصابها من الفكر الإرجائي، خاصة فكر المرجئة المحدَثين الذي أفرغها من كل مقتضياتها على الإطلاق. حين يصبح مقتضاها في حياة الناطقين بها أن يعبدوا الله وحده بلا شريك، وأن يقيموا حياتهم على شريعة الله ومنهجه، وأن يجاهدوا في الله حقَّ جهاده. يومئذ ستتغير حياتهم كلها، وينفضون عنهم الهوان والذل، والضياع والتيه، والفقر والجهل والمرض، ويمكِّن الله لهم مرة أخرى في الأرض كما وعد الله سبحانه، لا بعصا سحرية، ولكن بالجهد والعرق والدماء والدموع، ولكنه لن يكون كالجهد الذي يبذلونه اليوم في التيه، والعرق الذي يبذلونه في الذل، والدماء التي يبذلونها ضريبة لذلك الذل، والدموع التي يسكبونها حسرة على الضياع.

إنما ستكون كلها في سبيل الله، فيبارك الله بها في الحياة الدنيا، ويجزي عليها في الآخرة بالجنة والرضوان».

«مَفهُوم العبَادة»

استعرض المؤلف في هذا الفصل مفهوم العبادة بمعناه الصحيح، الشامل لكل نواحي الحياة، وهو المعنى الذي فهمه الجيل الأول -رضوان الله عليهم- ومارسه في شتى المجالات.

وأكد على أن هذا المفهوم ليس محصورًا في الشعائر التعبدية، وإنما هي -على أهميتها- جزء من هذا المفهوم الواسع الشامل.[1]

وبيَّن في بداية حديثه أنَّ الانحراف في تصور هذا المفهوم كان «من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين بعد انحرافهم في فهم لا إله إلا الله».

وتحدث مقارنًا بين المفهوم الصحيح للعبادة والذي عرفه بأنه «المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة» وبين «المفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة».

وذكر أن «المفهوم الصحيح للعبادة» كان «في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما فهموا من قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**...

وكانوا إلى جانب ذلك يحسُّون إحساسًا صادقًا بعظمة الله -جلَّ جلاله- فيحسُّون تبعًا لذلك بما ينبغي للعبد -في مقام عبوديته- تجاه الله -في مقام ألوهيته- من إخلاص العبودية له، وإخلاص العبادة.. سواء. ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسِّهم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها، كما انحصر في حسّ الأجيال المتأخرة التي جاءت بفهم للإسلام غريب عن الإسلام».

وعن طبيعة هذه العبادة الشاملة التي فهمها الصحابة -رضوان الله عليهم- من قول الله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ﴾**، قال: «تلك هي العبادة التي كلَّف بها الإنسان، تشمل الصلاة والنسك -أي الشعائر التعبدية- وتشمل معها كل الحياة».

وأكَّد على أنه «بهذا النهج وحده، أي بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة، التي تشمل الحياة والموت، تتحقق غاية الوجود الإنساني، ويكون الإنسان قد قام -قدر جهده- بالعبادة المطلوبة تجاه الله».

---

(1) ولعل تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية للعبادة يعبر عن مقصود المؤلف، حيث قال: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

أما عن المسلم المعاصر فذكر المؤلف أن هذا المعنى للعبادة قد يبدو غريبًا في حسِّه لأنه أصبح ينظر «إلى الشعائر التعبدية على أنها هي كل العبادة المطلوبة من المسلم، وأنه إذا أداها فقد أدَّى كل ما عليه من العبادة، ولم يعد لأحد أن يطالبه بالمزيد».

ثم أكد على أن «مرجعنا في تحديد المفاهيم الإسلامية ينبغي أن يكون هو الكتاب والسنة، والصورة التطبيقية الصحيحة للكتاب والسنة كما مارسها الجيل الأول –رضوان الله عليهم– الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم خير القرون قاطبة».

ثم ذكر المؤلف من الكتاب والسنة الكثير من الأدلة على «التكاليف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية والاعتقادية والأخلاقية» التي فرضها الله على الناس.

ثم تساءل: «ما موضع ذلك كله من العبادة التي بيَّن الله –سبحانه وتعالى– أنها هي وحدها الغاية من خلق الجن والإنس؟.

هل تقع تلك التكاليف كلها في داخل العبادة أم في خارجها؟.

وإذا كانت في خارجها فكيف يستقيم المعنى في الآية الكريمة التي تحصر التكليف كله في العبادة وحدها، ولا شيء سواها؟».

فأجاب: «لا بدَّ إذن –بداهةً– ألا تنحصر العبادة في الشعائر التعبدية وحدها كما ظنَّت الأجيال المتأخرة من المسلمين، وأن يكون معنى العبادة هو المعنى الشامل الواسع الذي تحمله الآيتان الكريمتان:

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾».

ثم تساءل أيضًا عن الصورة التي: «ينبغي أن يعبد المسلم ربه ليحقق غاية وجوده التي خلقه الله من أجلها، وحصر فيها غاية وجوده؟».

فأجاب: «يعبده بادئ ذي بدء بتوحيده جلَّ وعلا. أي بالإقرار بأنه لا إله إلا هو –سبحانه– المتفرد بالربوبية والألوهية، المتفرد في أسمائه وصفاته وأفعاله».

ثم قال: «وهذه العبادة الأولى -كما أسلفنا في الفصل السابق- لها مقتضياتها التي لا تتم إلا بها، وليست مجرد كلمة تنطق باللسان وينتهي الأمر و"تسدد الخانة"، كما زعم الفكر الإرجائي للناس بغير سند من كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم...[1]

ثم تأتي الشعائر التعبدية في موضعها بعد الإقرار بلا إله إلا الله، الذي يعني:... الإقرار بكل ما جاء من عند الله والالتزام به».

وعن أهمية هذه الشعائر التعبدية قال: «وقد احتفى الإسلام حفاوةً ظاهرةً بالشعائر التعبدية لحكمة ظاهرة، فهي التي تربط القلب ربطًا دائمًا ومتجددًا بالله، وهي... محطات التزود التي يتزود فيها الإنسان بالزاد الذي يعينه على بقية الطريق».

وذكر المؤلف -حفظه الله- أن «الأجيال المتأخرة وقعت بشأن هذا التركيز في مجموعة من أخطاء التصور وأخطاء السلوك.

وكان الخطأ الأول -والأخطر- هو حصر العبادة المطلوبة كلها في الشعائر التعبدية.

وقد ترتب على هذا التصور الخاطئ إخراج لا إله إلا الله بكل مقتضياتها الاعتقادية والسلوكية من دائرة العبادة، فأصبحت العبادة تبدأ في -حسِّ الناس- بالصلاة، ولا تبدأ بلا إله إلا الله».

ثم تحدث المؤلف عن خطورة هذا الأمر في حياة المسلم المعاصر، وأكد على أنه «حين يوجد إدراك صحيح للعبادة، وأنها تبدأ بالإقرار بالعبودية لله وحده دون شريك، قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج، لا يمكن أن توجد الظاهرة القائمة اليوم في حياة "المسلم المعاصر" وهي وجود ملايين من البشر يعتقدون أن الإنسان إذا أدَّى الشعائر التعبدية فهو مؤمن كامل الإيمان، ولو تحاكم راضيًا إلى شريعة غير شريعة الله، وأن قضية التحاكم منفصلة تمامًا عن العبادة، كما هي منفصلة تمامًا عن الإيمان».

وأوضح أن «من بين ما خرج من مفهوم العبادة حين انحصرت في الشعائر التعبدية "العمل" بجميع أنواعه، بدءًا بالعمل السياسي المتمثل في رقابة الأمة على الحاكم، وتقديم النصح له، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ليستقيم على أمر الله وشريعته، ويطبق العدل الرباني كما أمره الله، فيتمتع المجتمع بنعمة الإسلام التي منَّ الله بها على عباده».

وذكر العوامل التي أدَّت إلى هذا الانحصار فقال: «الاستبداد السياسي الذي بدأه الأمويون في حياة الأمة الإسلامية منذ وقت مبكر، مضافًا إليه التفلُّت التدريجي من التكاليف، والصوفية التي أنشأتها ظروف

(1) اعتمدت المرجئة بشتى أصنافها في تأصيل ضلالها في الإيمان على أحاديث نبوية مجملة غير مفصلة، ومختصرة غير مقتصاه، وهذا ديدن أهل البدع والضلال.

معينة في حياة الأمة، والفكر الإرجائي الذي حصر الإيمان -الذي يدخل به الناس الجنة- في التصديق والإقرار».

وبين خطورة خروج العمل السياسي من دائرة العبادة فقال: «حين خرج العمل السياسي من دائرة العبادة تخلخلت أول عروة من عرى الإسلام -عروة الحكم- وإن كانت لم تنقض تمامًا في مبدأ الأمر، فقد بقي الناس في المجتمع الإسلامي يتحاكمون إلى شريعة الله، لا يرون غيرها شريعة واجبة الطاعة ولا واجبة التنفيذ، ولكن صحب تحكيم شريعة الله جورٌ من الحكَّام ومظالم تجعل التطبيق غير كامل كما أوجبه الله ونفذه السلف الصالح، ومرَّت قرون من هذا التحكيم المصحوب بالجور والظلم حتى نقضت تلك العروة تمامًا في العصر الحديث حين نحِّيت شريعة الله عن الحكم أصلاً، واستبدلت بها شرائع البشر، فكانت أول عرى الإسلام نقضًا كما قال الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم: "لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، فأولها نقضًا الحكم، وآخرها نقضًا الصلاة"».[1]

ثم بيَّن المؤلف أن الانحسار في مفهوم العقيدة ومفهوم العبادة لم يقف عند هذا الحد وإنما سرى الانحسار «تدريجيًّا إلى بقية أنواع العمل، فأُخرجت تدريجيًّا من دائرة الإيمان ودائرة العبادة».

ثم أشار إلى حال الصحابة -رضوان الله عليهم- الذين كانوا «يقضون الحياة كلها في عبادة، عبادة تشمل نشاط الروح كله، ونشاط العقل كله، ونشاط الجسد كله».

واستعرض بعض النماذج من سلوك هؤلاء لكي «ندرك هذه الحقيقة العميقة الدقيقة، وهي شمول العبادة في حسّهم لكل عمل وكل فكر وكل شعور، وكل لحظة من لحظات العمر، وعدم اقتصارها على لحظات معينة هي التي تؤدى فيها الشعائر التعبدية».[2]

ثم ذكر أن الأخلاق هي الأخرى قد خرجت من دائرة العبادة كما خرج العمل.

وعقد المؤلف مقارنة بين أخلاق الإسلام الحقيقية الأصيلة النابعة من حسّ المسلم بأنها جزء من العبادة المفروضة عليه، وبين تلك الأخلاق النفعية التي انتشرت في الغرب، والتي كان «هدفها تحقيق المنفعة في الحياة الدنيا فحسب».

وأوضح أن هذه الأخلاق هي التي ساهمت في دخول الملايين الإسلام وانتشار الفتوحات الإسلامية من «الهند شرقًا إلى المحيط غربًا».

(1) أخرجه أحمد.

(2) ذكر -حفظه الله- هنا نماذج من سلوك هذا الجيل الفريد، لولا خوف الإطالة والخروج عن مقصود هذه القراءة لأوردتها، فارجع إليها إن شئت.

ثم بيَّن أن الفساد الذي أصاب مفهوم العبادة وحصرها في الشعائر «قد أدَّى -بالطبيعة- إلى مزيدٍ من الانحسار على درجات:

فأما الدرجة الأولى فهي انحسار الشعائر ذاتها إلى أعمال مقصودة لذاتها، بغير مقتضيات لها، بحيث يصبح أداؤها في ذاتها هو كل "العبادة" المطلوبة من الإنسان».

وذكر: «أن الشعائر التعبدية ذات مقتضيات، وأنها لا تنتهي بذات نفسها، أي بمجرد أدائها، إنما تصحبها وتتبعها مقتضيات، هي التي تعطيها معناها الحقيقي، ومهمتها الحقيقية في حياة الأمة المسلمة».

وضرب على ذلك أمثلة فقال: «لا إله إلا الله تبدأ بنطقها، ولكن نطقها وحده لا يحقِّق التوحيد، الذي هو حقيقة الإسلام، إلا أن يلتزم الإنسان التزامًا سلوكيًّا واقعيًّا بما لا بدَّ من الالتزام به، وهو عدم الشرك في الاعتقاد، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده بلا شريك، وتحكيم شريعة الله في كل أمر من الأمور.

والصلاة تبدأ بأدائها -على الصورة التي بيَّنها الله ورسوله- وتعطي مظهرية الإسلام بالأداء، ولكنها لا تُقبل عند الله حتى تؤدي مقتضاها من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر».

وقال: «كذلك بقيَّة العبادات».

ثم تحدث عن زيادة الانحسار حتى أصبح «المطلوب هو أداء الشعيرة بأي صورة كانت، ولو كان أداءً آليًّا بغير روح، أو أداءً تقليديًّا يحرِّكه الحرص على التقاليد أكثر مما يحرِّكه الدافع إلى عبادة الله».

ثم قرر أن «تلك هي الصورة التي انتهت إليها العبادة في الجيل الذي شهد الانهيار».

ثم ختم المؤلف هذا الفصل ببيان الفرق الشاسع: «بين مفهوم العبادة كما نزل من عند الله، وعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووعاه الجيل الأول ومارسه، وبين المفهوم الشائه الهزيل الضامر الذي فهمته الأجيال المتأخرة، مارسته أم لم تمارسه».

وفي ذلك يقول: «المفهوم الأول هو الذي أخرج "خير أمة أخرجت للناس". والمفهوم الأخير هو الذي أخرج "غثاء السيل"».

ثم وصف العلاج بقوله: «ولا بدَّ من تصحيح المفاهيم **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾**... ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها...

ولن يكون هناك سحر يمحو الضعف والتخلف في لحظات ويبدلهما تقدُّمًا وقوة، إنما هناك سنن ربانية تقوم عليها حياة الناس في الأرض. وحين نعمل حسب السنن الصحيحة يأتينا الحل الصحيح.

وليس من السنن الصحيحة أن نفسد ديننا ثم نقول: يا رب، يا رب.

إنما قال تعالى عن الحياة الدنيا: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾**.

وقال عن الحياة الآخرة: **﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾**.

وواضح من الآيات أن طريق الفوز في الدنيا هو ذاته طريق الفوز في الآخرة بلا افتراق.

فالمستخلفون الممكَّنون في الدنيا هم: **﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾**، **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾** فأولئك هم الفائزون في الآخرة.

ولا غرابة في ذلك في الدين الذي يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، ويجعل إقامة حكم الله في الأرض، وتحقيق العدل الرباني، وطلب العلم، والمشي في مناكب الأرض سعيًا وراء الرزق، ومعاشرة الأهل بالمعروف، وإعداد العدة لأعداء الله، والتخلّق بالأخلاق الفاضلة، جزءًا من العبادة، مطلوبًا كالصلاة والزكاة والصيام والحج.

أما طريق المرجئة، الذي يخرج العمل من مسمى الإيمان، ويخرجه من مفهوم العبادة، فهو الطريق الخاسر في الدنيا والآخرة على السواء».

«مَفهُوم القضَاءِ وَالقَدَر»

ذكر المؤلف في بداية هذا الفصل أن «الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيسي من عقيدة المسلم، كما بيَّنها حديث جبريل عليه السلام: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"[1] وهو من مميزات هذه الأمة في تاريخها الطويل».

وبيَّن أن هذا المفهوم أصابه ما أصاب غيره من انحراف، فقد «كان في حسِّ الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بنَّاءة محركة، بقدر ما صار في حسِّ الأجيال المتأخرة منها قوة سلبيَّة هدَّامة مخذِّلة».

وبيَّن حقيقة الفارق بين جيل اليوم والجيل الأول فقال: «الفارق الضخم في حقيقة هذه العقيدة بين الأجيال الأولى والأجيال المتأخرة، هو الفارق بين التوكل على الله كما مارسته الأجيال الأولى، والتواكل الذي حدث في عصر الانحسار، ثم عصر الانحدار».

وأكّد المؤلف –حفظه الله– على عدة حقائق تظهر هذا الفارق الضخم الذي ذكره فقال: «كان المسلم الأول يؤمن بأن كل ما يحدث له أو يحدث في الكون هو بقضاء الله وقدره، وأنَّ شيئًا لن يغيِّر ما قدَّره الله منذ الأزل في اللوح المحفوظ. ثم كانت نتيجة إيمانه بذلك أن يقول لنفسه، أَئِذا ذهبت إلى ميدان القتال أُقْتَلُ بسبب ذهابي إلى هناك؟ أم إنَّه يجري عليَّ ما قدَّره الله لي، فإن كان كتب لي الشهادة هناك فسأقتل –بقضاء من الله وقدر– وإن كان كتب لي العودة فسأعود؟ ثم إنني إن كان الله قد كتب عليَّ الموت فسأموت ولو كنت في مكاني هذا ولم أذهب إلى القتال، إذن فما الذي يقعدني عن القتال؟ خوف الموت وهو مقدَّر على أي حال؟ أم خوف الأذى ولن ينالني منه إلا ما قدَّره الله في كل حال؟ كلا فلنذهب إلى أداء فريضة ربنا، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ثم يذهب إلى القتال بنفسٍ شجاعةٍ فيستبسل، فيُمضي الله به قدره في الأرض، وينصر به هذا الدين ويمكِّن له، ثم يكون من أمره ما قدَّره الله له، إما الشهادة وإما النصر».

ثم أردف قائلاً: «كذلك كان المسلم الأول يفعل وهو يكشف مجاهيل الأرض لنشر الدعوة، ولطلب العلم، وللسعي وراء الرزق، ويمشي في مناكب الأرض ويتعرض للأخطار والمشقات. كانت القاعدة في حسّه أن أقدم وتوكل على الله».

ثم تساءل: «كيف تحول هذا الإقدام إلى تقاعس وقعود في انتظار ما قدَّره الله؟!».

وأزاح الستار عن حقيقة ثانية بقوله: «كان في حسِّ المسلم الأول أنَّ إيمانه بالقضاء والقدر لا ينفي مسؤوليته عن عمله حين يرتكب خطأً يعرِّضه للجزاء».

---

(1) أخرجه الشيخان.

وضرب مثالاً لذلك بما حدث في وقعة أُحُد من مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت «الهزيمة والاضطراب العنيف في صفوف الجيش، وإصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أشاع الكفار من قتله عليه الصلاة والسلام، وأثر ذلك في تفريق وحدة الجيش».

ثم قال: «ونزل القرآن بعتابٍ شديدٍ للمؤمنين على ما فعلوا، ونزل كذلك بالشرح والبيان، وكان من هذا الشرح تلك الآيات:

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾.

إنه من عند أنفسكم، وفي ذات الوقت هو بإذن الله.

المسؤولية عن الخطأ قائمة، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم، لا يتعارضان.

ولقد كان هذا من أعظم ما تعلمته هذه الأمة ومن أعظم ما تميَّزت به: إزالة التعارض بين إيمان الإنسان بمسئوليته عن عمله، وإيمانه بقضاء الله وقدره، وإقرار الأمرين معًا في القلب البشري ليتوازن بينهما، ويتوازن بهما في مسيرته في هذه الأرض، فلا يزايله الإحساس الدائم بقدر الله والتطلع إليه في الكبيرة والصغيرة، ولا يزايله كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب».

ثم تساءل المؤلف: «كيف تحوَّل هذا التوازن البديع إلى تنصُّل من كل مسؤولية بدعوى الإيمان بقضاء الله وقدره؟».

والحقيقة الثالثة التي أبرزها المؤلف أنه «كان في حسِّ الأمة الأولى أن إيمانها بالقضاء والقدر لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب».

قال: «ومع أن لله -سبحانه وتعالى- سنة خارقة تملك أن تصنع كل شيء، ولا يعجزها ولا يقيِّدها شيء، لأن مشيئة الله طليقة من كل قيد، إلا أن الله جلَّت قدرته قد قضى بأن تكون سننه الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سننه الخارقة استثناء لها، وكلتاهما معلَّقة بمشيئة الله. لذلك كان في حسِّهم أنه لا بدَّ لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم، أي أنه لا بدَّ من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية».

لكنَّه أكَّد مع ذلك على أنَّ «هذه الأمة لم تُترك لتفتن بالأسباب، تظنها مؤدية -بذاتها- إلى النتائج بمعزل عن قدر الله كما تصنع الجاهلية المعاصرة، فقد كان درس حُنَين لتثبيت هذا المعنى في نفوس المؤمنين **﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ**

مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان هذا كذلك من أبدع ما تعلَّمته هذه الأمة وتربَّتْ عليه، لتتوازن في مسيرتها الأرضية بين التواكل بغير اتخاذ الأسباب، وبين الاتكال على الأسباب».

ثم تساءل: «كيف تحوَّل هذا التوازن الرائع إلى سلبية كاملة، وقعود عن اتخاذ الأسباب بدعوى الاتكال على الله؟».

ومما أبرزه المؤلف من حقائق أنه «لم يكن في حسِّ الأمة الأولى تعارض بين التسليم لقدر الله، والعمل على تغيير الواقع السيئ حين يكون».

قال: «إن كل شيء في هذا الوجود وفي حياة البشر واقع بقضاء الله وقدره، لا جدال في ذلك ولا شكَّ فيه في نفوس المؤمنين.

وحين يوجد واقع سيئ في حياة الناس فهو واقع بقضاء الله وقدره، سواء بسبب من عند الناس... أو لأمر لا مسؤولية لهم فيه... أو ابتلاء من عند الله للمؤمنين ليمحِّصهم».

ثم بيَّن بقوله: «هذا وغيره مما يصيب الناس في الأرض يحدث كله بقضاء الله وقدره. ولكن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدر الله، بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذي هم فيه. إنما أمرهم بالتسليم (أو الاستسلام) لقدر الله، بمعنى الرضى بما وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه، أما القعود عنده وعدم تغييره أو محاولة تغييره، فأمر آخر لم يأمر الله به ولا حثَّ عليه، ولا علاقة له بالرضى بما وقع على أنه قدر محتوم من عند الله».

ثم تساءل: «كيف تحوّل هذا التوازن إلى قعود عن التغيير بدعوى الاستسلام لقدر الله؟».

وأوضح المؤلف أن هناك نوعان من الانحراف في هذا المفهوم: النوع الأول هو: «السلبية، ونسيان الأسباب جملة، والزهد في العمل والإنتاج» والذي تمثله الهندوكية والرهبانية.

والنوع الثاني من الانحراف والذي تمثله الجاهلية المعاصرة هو: «شعور الإنسان المضخم بذاتيته، وفتنته بالأسباب، وفتنته بعمله، وتوهُّمه أنَّه يصنع قدره بنفسه».

ثم قال: «بين هذين الطرفين المتناقضين تجيء عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة في الإسلام، تقرر هيمنة الله الشاملة على كل ما يجري في الكون وفي حياة الإنسان، ولا تلغي في الوقت ذاته فاعلية الإنسان، ولا تلغي العمل، ولا تلغي اتخاذ الأسباب.

في توازن كامل يؤمن المسلم بأن كل ما يحدث في الكون وفي حياته هو قدر مقدور من عند الله من قبل أن يحدث ذلك بالفعل في الواقع البشري... وفي الوقت ذاته يؤمن بأن عليه أن يعمل، وأن يتخذ الأسباب، وبأنَّ ما يجري من المقادير في الأرض مرتبط بالأسباب التي يتخذها (أو يدع الأخذ بها)، وبنوع العمل الذي يقوم به».

وقال إن المسلم «يتخذ الأسباب عبادةً لله، وانطلاقًا مع سنة الله الجارية، ويحسّ في الوقت ذاته أن النتيجة التي وصل إليها هي قدرٌ قدَّره الله، وليست حصيلة أسبابه التي اتخذها، وأن الأسباب لا تؤدي بذاتها أداءً حتميًّا إلى النتيجة، إنما تؤدي إلى النتيجة بقدر من الله، ولو شاء الله ألا يوصل السبب إلى النتيجة فإن الذي ينفذ بالفعل هو إرادة الله وليس حتميَّة الأسباب».

وذكر أن «هذا هو الفارق الأصيل بين المسلم وبين نظيريه من الجاهليين من هنا ومن هناك، أحدهما يقعد عن العمل ولا يحسُّ بقيمة وجوده الإنساني، والثاني يعمل مفتونًا بالأسباب، كأنَّها في حسِّه أرباب».

ثم تساءل المؤلف عن «هذه العقيدة الرائعة التي أنشأت في حياة الأجيال الأولى من هذه الأمة ما أنشأت من منجزات تشبه المعجزات. ماذا أصابها خلال القرون، فانحدرت إلى مثل ما انحدرت إليه البوذية والهندوكية والرهبانية؟ كيف صارت إلى تقاعس وقعود وتنصُّل من المسؤولية وانصراف عن التغيير، أدَّى كله في النهاية إلى هذا الضعف الفكري والعلمي والمادي، وهذا التخلف الحضاري، الذي اجتذب قوى الشر من كل صوب تحاول اقتلاع جذور الإسلام من الأرض، وتندِّد بواقع المسلمين السيئ لتنفِّر من الإسلام ذاته، بزعم أن هذا الواقع هو الإسلام؟».

فأجاب: «لقد أصابه ما أصاب لا إله إلا الله وبقيَّة العبادات، أفرغ من محتواه الحقيقي، وأصبح صورة بلا رصيد».

وعن واقع المسلمين المعاصرين يقول: «ثم يجيء طور على "المسلمين المعاصرين" ينسلخون فيه من عقيدة القضاء والقدر كما انسلخ سادتهم الأوربيون من قبل، ويقولون: نريد أن نترك العقلية الغيبية التي كانت سبب تأخرنا، وتكون لنا عقلية علمية تقدمية، إن القضاء والقدر لا وجود له إلا حيث توجد الفوضى والجهل والانحطاط والتأخر، أما حيث يوجد النظام والعلم والتقدم والتخطيط العلمي والعقول الإلكترونية فأنَّى للقدر أن يتدخل، وكل شيء محسوب له ألف حساب».

ثم يوضح حقيقة الأمر ويبطل مزاعمهم بقوله: «ويَغْفُلُ هؤلاء عن معنى قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾**، بل يَغْفُلُون عما هو أقرب إلى المشاهدة الحسِّيَّة من ذلك الغيب الذي يوشك أن يتحقق، يغفلون عن الأمراض التي تفاجئ أولئك الحاسبين المخططين الذين يحسبون أنهم أغلقوا بحساباتهم كل فرصة لقدر الله

أن ينفذ إلى واقع الأمور، أمراض من كل نوع: نفسية وعصبية وعقلية وجثمانية وأخلاقية واجتماعية وفكرية وسياسية واقتصادية، كلها لم تكن في الحسبان».

وختم المؤلف هذا الفصل واصفًا العلاج بقوله: «والمسلمون اليوم في حاجة إلى تصحيح مفهوم القضاء والقدر الذي اختل في حسِّهم خلال القرون، فلا هو بالسلبية التي غشت القرون الأخيرة، ولا هو الفتنة بالأسباب التي توشك أن تعمَّ العالم الإسلامي اليوم مع الغزو الفكري القادم من جاهلية الغرب».

«مَفهُوم الدُّنيَا والآخرة»

تناول المؤلف هذا المفهوم -كما فعل في غيره من المفاهيم- بردِّه إلى ما كان عليه الجيل الأول من المسلمين لأنه -كما قرر سابقًا- «الصورة التطبيقية الصحيحة للكتاب والسنة» وهما كما قرر أيضًا «مرجعنا في تحديد المفاهيم الإسلامية».

وذكر أنه لم يكن في حسِّ هؤلاء «ذلك الفاصل الحاد بين الدنيا والآخرة الذي أحسَّته الأجيال المتأخرة» وأنه «لم يكن في حسِّهم أن هناك أعمالاً معينة هي للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة، وأعمالاً أخرى هي للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا».

وبعد أن أقر أن الأعمال تتفاوت في طبيعتها فبعضها «يغلب عليها الطابع الروحي، كالصلاة والدعاء والذكر، والشعائر التعبدية عامة» وبعضها «يغلب عليها الطابع الفكري، كطلب العلم» وبعضها «يغلب عليها الطابع الحسِّيّ، كالطعام والشراب» لكنه أكد على أن «ذلك لا يفصل بين بعضها وبعض من جهة، لأنها صادرة عن الكيان الإنساني الموحد المترابط، ومن جهة أخرى لا يجعل بعضها للآخرة خالصة من دون الدنيا، وبعضها للدنيا خالصة من دون الآخرة».

واستطرد قائلاً: «كان المفهوم الصحيح للعبادة هو الذي يحكم حياتهم، ويحكم تصورهم: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**.

وفي هذا المفهوم لا يمكن أن تنفصل الشعائر التعبدية عن العمل، ولا الدنيا عن الآخرة، لذلك كانت الحياة في حسِّهم حلقة متصلة لا انفصام فيها بين جزء وجزء، الصلاة فيها والنسك، والطعام والشراب والجنس، والقتال في سبيل الله، والسعي وراء الرزق، وطلب العلم، وعمارة الأرض، كلها عبادة، وكلها للدنيا والآخرة في آن، وكل لحظة واعية تمر بالإنسان في نهاره أو ليله، وكل عمل يقوم به -متوجِّهًا فيه إلى الله، وملتزمًا فيه بما أنزل الله- فهو لون من ألوان العبادة، متصل بعضها ببعض، وهو على الدوام يتنقل من عبادة إلى عبادة، تحقيقًا لغاية الوجود الإنساني، التي تشمل وجوده كله، وتوجهه إلى الله».

وبعد أن قرر أن الدنيا قد ذمت «في القرآن ولعنت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم».

أوضح أن ذلك جاء «في مجالين اثنين: حين تكون الدنيا -أي حبّها والتعلّق بها- حاجزًا بين الناس وبين الإيمان بالله واليوم الآخر، أو حاجزًا بينهم وبين الجهاد في سبيل الله».

وأورد الأدلة على ذلك كقوله تعالى: **﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾**.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وذكر غير ذلك من الآيات، ثم أردف –حفظه الله– قائلاً: «والمتحدث عنهم في تلك الآيات جميعًا هم إما من الكفار الخلّص، وإما من المنافقين، الذين يتظاهرون بالإسلام نفاقًا ورياء ولكنهم في دخيلة أنفسهم غير مؤمنين، وهم في الدرك الأسفل من النار، وهم في حكم الله كافرون».

ثم تساءل: «ولكن ما حقيقة الموقف في هذين المجالين؟».

فأجاب: «حقيقة الموقف أن الدنيا هنا منفصلة في حسِّ صاحبها عن الآخرة، إما لأنه لا يؤمن بها أصلاً، وإما لأن اعتقاده بها ضعيف مبهم متداخل، لا يكوّن في حسِّه صورة واضحة، ولا يؤثر –من ثَمَّ– في فكره ولا مشاعره ولا سلوكه الواقعي. والقضية في حسّه على هذا النحو: جنة يوعد بها –على غير إيمان منه، أو إيمان يستوي وجوده وعدمه– ذات تكاليف في النفس والمال، وقعها في حسِّه أنها حرمان من المتاع، لأنه لا يريد أن يكتفي بالقدر الذي أباحه الله، إنما يريد أن يسترسل مع شهواته، ولا يستخدم جهاز "الضبط" الذي وهبه الله إياه ليتحكم في هذه الشهوات. وفي مقابل ذلك متاع قائم بالفعل، هو مسترسل فيه إلى أقصى المدى، ويقال له إن استمتاعه به على النحو الذي يزاوله سيحرمه من الجنة.

وحين صارت القضية على هذا النحو، وصار الخيار بين الجنة الموعودة مع الحرمان من المتاع الزائد عن الحد، وبين المتاع الطاغي مع الحرمان من الجنة في الآخرة الموعودة، فقد آثر الحياة الدنيا».

ثم تابع قائلاً: «وقد آثر أن يستمتع بما بين يديه من المتاع الزائد عن الحد، لأن الحرمان منه أشد لذعًا في حسّه من العذاب الذي توعده الله به، إما لأنه لا يؤمن بالآخرة أصلاً، فالعذاب المتوعد به في حسّه وهمٌ لا حقيقة له، وإما لأنه ضعيف الإيمان بالآخرة، ومن ثم فإن ذلك العذاب، المنبهم في خياله، أخف وزنًا في حسِّه من العذاب القريب الذي يحدثه حرمانه من المتاع.

وفي الحالين هي حالة غير سوية، تختل الموازين فيها في حسّ صاحبها، لأنه لا يؤمن إلا بما تدركه حواسِّه، ويغفل عن الدلالة المعنوية لما تدركه حواسّه:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾».

ثم قال: «أما في حسِّ الإنسان السوي فالقضية مختلفة تمامًا.

إن الإنسان السوي –بادئ ذي بدء– لا يغلق روحه دون عالم الغيب، ولا يحصر نفسه في محيط ما تدركه حواسه فحسب، فقد زوده خالقه سبحانه –لكي يعينه على القيام بمهمة الخلافة التي خلقه من

أجلها– بقدرتين متقابلتين، يؤدي بكل منهما جانبًا من مهمة الخلافة، ويتوازن بهما معًا فلا يفقد توازنه من هنا ولا من هناك. إحداهما هي الإيمان بما تدركه الحواس والثانية هي الإيمان بالغيب. وبالقدرة الأولى يتعامل مع واقع الحس القريب، ومع الكون المادي من حوله، فيتعرف على خواص المادة، ويستثمر علمه في تحقيق ما سخر الله له من طاقات السماوات والأرض من أجل تحسين أحواله على الأرض. وبالقدرة الثانية يتعامل مع الحقائق التي لا يدركها حسّه –وإن كان يدرك آثار وجودها– والتي هي مفطور على الإيمان بها، والتعامل معها، والارتباط بها، كحقيقة الألوهية، وحقيقة النبوة والوحي الإلهي، وحقيقة البعث والجزاء، ليقوم بالجانب الآخر –الأهم في الحقيقة– وهو إقامة العمارة المادية للأرض على مقتضى المنهج الرباني».

وأوضح المؤلف أن هذا الإنسان السوي قد أباح الله له قدرًا من المتاع وأن «هذا القدر الذي حدده الله بعلمه وحكمته، يعلم سبحانه أنه هو القدر المناسب للكيان البشري، الذي يعينه على القيام بدور الخلافة في الأرض دون أن يدمِّر هذا الكيان أو يعطبه. وفي الوقت ذاته يتمثَّل فيه الابتلاء الذي خلق الإنسان له، فقد خلق الله الكيان البشري محببة إليه الشهوات... وفي الوقت ذاته حدد الله الحدود:

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾... ولكن نقطة الابتلاء هي تزيين الشهوات له بحيث يرغب في الاستزادة منها، وتقييده –في الوقت ذاته– بهذا القدر المباح له، وعدم السماح له بتجاوزه ولو هفت نفسه إلى المزيد».

وذكر أن الله «وهب له أداة عظيمة النفع، عظيمة التأثير، يستطيع بها أن يضبط منطلق شهواته... تلك الأداة العظيمة هي "القلب" أو "العقل" أو "الفؤاد"».

ثم ذكر المؤلف أن «هذا التوازن الجميل الذي أنشأه الإسلام في النفس البشرية، وحققته الأجيال الأولى من المسلمين ذلك التحقيق الرائع... بدأ يختل بعد تلك الأجيال الأولى، وإن كان الخلل في هذه المرة قد وقع في الاتجاه المقابل تمامًا لما كان عليه في الجاهلية العربية».

قال: «كان الخلل في الجاهلية العربية هو انفصال الدنيا في حسّ الناس عن الآخرة، لعدم إيمانهم بالآخرة والبعث والجزاء، ومن ثم إيثار الحياة الدنيا، وهو الآن انفصال الدنيا في حسِّ الناس عن الآخرة لاستصغارهم شأن الحياة الدنيا واحتقارها، ومن ثم إيثار الآخرة».

وأوضح أن هذه الصورة هي «التي قدمتها الصوفية، التي انتشرت قرونًا طويلة على امتداد الأرض الإسلامية، وما تزال آثارها قابعة هنا وهناك».

ثم شرع المؤلف في مناقشة ما اتكأت عليه الصوفية من الآيات التي وردت في ذم الدنيا، والأحاديث التي وردت في لعنها، ومناقشة ما استدلوا به من «حال الزهاد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين هجروا متاع الحياة الدنيا ولم يتعلَّقوا بشيء منه».

وذكر الفرق الهائل –الذي قد يصل إلى طرفي نقيض– بين الصوفية وبين «زهاد الجيل الأول، وعلى رأسهم سيد الزهاد صلى الله عليه وسلم».

وقال إنهم يفترقان في «مفهوم العبادة، ومن ثم يفترقان في منهج الحياة، وفي منهج السلوك».

وذكر أن كلاهما –الزهاد والصوفية– يمتنعان عن بعض الشهوات والتي ينتج عنه «طاقة نفسية هائلة، رفيعة المستوى، قابلة للتوجه إلى آفاق لا يصل إليها قط صاحب النفس المنساقة مع الشهوات».

ولكنه أوضح أن هذه الآفاق تختلف:

«فأما زهاد الجيل الأول، وعلى رأسهم سيد الزهاد صلى الله عليه وسلم فقد علمنا طبيعة الآفاق التي رفعهم إليها زهدهم في متاع الأرض: الجهاد في سبيل الله، الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، الجهاد ليكون الدين كله لله، الجهاد لإقامة العدل الرباني في واقع الأرض، الجهاد لإقامة المجتمع المثالي الذي يحقق في عالم الواقع ما يتخيله الناس في عالم المثال، الإيجابية الهائلة التي تغير الواقع المنحرف، وتنشئ بدلاً منه الواقع السوي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذان هما رسالة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة».

وقال: «هذا والزهاد –وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم– لا يحرِّمون المتاع، إنما يرتفعون فوقه، فلا يعود يشغلهم عن الجهاد في تلك الآفاق العالية التي يجاهدون فيها، ولا عن الأهداف العالية التي يعملون بطاقتهم الإيجابية كلها لتحقيقها في عالم الواقع».

ثم قال: «أما الصوفية فماذا صنعوا بتلك الطاقة الهائلة التي وفرها في نفوسهم ترفعهم عن المتاع؟

لقد صرفوها إلى نوع آخر من الجهاد، جهاد الشيطان في داخل النفوس، وأوَّلوا في سبيل ذلك كل آيات الجهاد الواردة في كتاب الله، حتى تلك التي تشمل ألفاظًا صريحة تنصّ على قتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم».

وقرر المؤلف أن جهاد الشيطان مأمور به وأن هذا الجيل الفريد «قد جاهد الشيطان وظفر في جهاده له بأكبر نصر عرفه التاريخ... ولكنهم ما جعلوا معركتهم مع الشيطان هي نهاية المطاف... إنما كانت معركتهم مع الشيطان وظفرهم عليه هي نقطة الانطلاق التي ينطلقون منها إلى البناء، إلى الجهاد، إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى إقامة العدل الرباني في الأرض، إلى دكِّ حصون الشرك وإقامة حصون

الإيمان، إلى إزالة الطواغيت وإقامة حكم الله، إلى إنشاء القوة التي يرهبها أعداء الله، وما كانوا يستطيعون أن يقوموا بشيء من هذا كله لو لم يبدأوا بجهاد الشيطان داخل نفوسهم».

وختم المؤلف هذا الفصل ببيان أن أهم ما تركته الصوفية وأخطره أثرًا في حياة الأمة كان كما قال: «استخلاص جانب من العبادة التي فرضها الله على الإنسان –وهو الشعائر التعبدية– والزعم بأنها وحدها هي المؤدية إلى الفوز في الآخرة، وإهمال الجانب الآخر من العبادة على زعم أنه جانب أرضي متعلق بالحياة الدنيا، وأن في إهماله قربى إلى الله».

«مفهُوم الحَضارةِ وَعمارةِ الأرض»

ذكر الكاتب في بداية هذا الفصل أن الانحراف في مفهوم الحضارة وعمارة الأرض وقع حين وقعت الأمة في الانحرافات التي ذكرها سابقًا: «تفريغ لا إله إلا الله من مقتضاها الحقيقي، وتحوّلها إلى كلمة تقال باللسان، بغير دلالة ولا رصيد واقعي، وحصر مفهوم العبادة في شعائر التعبد، وتحوّل عقيدة القضاء والقدر إلى سلبية وقعود عن الأخذ بالأسباب، وتخل عن دور الإنسان الإيجابي في الأرض، ووضع الدنيا والآخرة موضع التقابل والتخيير، ثم اختيار الآخرة وإهمال الدنيا».

وأوضح أن الفهم الصحيح لهذا المفهوم هو الذي فهمته «الأجيال الأولى من المسلمين للحضارة» والذي كان «مستمدًّا من روح الإسلام، ومتفرّدًا ككل شيء في هذا الدين».

وذكر في حديثه أن هناك جاهليات «معاصرة لمولد الإسلام وسابقة له ولاحقة قد ركزت على المعنى الروحي للحضارة، وأهملت الحياة الدنيا، وأهملت العمارة المادية للأرض، بوصفها أمورًا ألصق بالحسِّ، وأقرب إلى متاع الجسد، والجسد ملعون ومحتقر ومستقذر». وهناك جاهليات أخرى «قد ركزت على الجانب المادي للحضارة، وأهملت الآخرة، وأهملت عالم الروح، بوصفهما أمورًا شخصية لا علاقة لها بالواقع العملي، بل بوصفهما -في كثير من الأحيان- معوقات لانطلاق الحضارة، وأكبّت على عالم الحسّ وعالم المادة، تبدع فيهما كل عبقريتها، وتصب فيهما كل طاقتها، بصرف النظر عن القيم والمثل والمبادئ».

وبين أن «الإسلام -المنزَّل من عند الله اللطيف الخبير، خالق الإنسان والعليم بأحواله وحاجاته، وما يصلحه وما يصلح له- هو المنهج الشامل الكامل، الذي لا يهمل جانبًا من جوانب الإنسان، ولا يلبي جانبا منه على حساب جانب آخر».

وعن طبيعة المفهوم الإسلامي للحضارة قال: «إن المفهوم الإسلامي للحضارة هو مفهوم العبادة.

هو تحقيق غاية الوجود الإنساني التي حددها قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**».

وأوضح أن «تحقيق الجانب الروحي للإنسان وحده، على حساب الجانب الحسِّي والمادي، وفي عزلة عنه، لا يحقق غاية الوجود الإنساني كاملة كما بينها المنهج الرباني. وإن تحقيق الجانب الحسِّي والمادي من الإنسان والحياة البشرية على حساب الجانب الروحي وفي عزلة عنه، لا يحقق كذلك غاية الوجود الإنساني، بل يتجه به إلى الدمار والبوار. ومن ثم فكلاهما لا يشكل حضارة بالمفهوم الصحيح للحضارة، أو إنه يشكل "حضارة جاهلية" إن صحَّ هذا التعبير».

وقال: «إنما الحضارة الصحيحة هي التحقيق السوي لغاية الوجود الإنساني في الأرض، التي حددها قوله تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** وفسّرها قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي**

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ﴾. وهي في المفهوم الإسلامي شيء شامل لكل النشاط الهادف للإنسان».

وذكر أن المفهوم الإسلامي للحضارة يشمل جانبين: أحدهما معنوي كالصلاة والنسك «بمدلولهما الحقيقي، ومقتضاهما الحقيقي». وكإقامة «شريعة الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله، وهو المقتضى المباشر للا إله إلا الله».

وكإقامة «العدل الرباني في الأرض كما أراده الله أن يكون، وأخرج هذه الأمة لتقيمه».

وكإقامة «الحياة كلها –بكل ألوان النشاط فيها– على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته».

وقال إن «هذا كله، وما كان في مثل اتجاهه، هو الجانب المعنوي من الحضارة في المفهوم الإسلامي».

وذكر أن الجانب الآخر الذي يشمله المفهوم الإسلامي هو الجانب المادي للحضارة الإنسانية.

وأوضح ذلك بقوله: «لئن كان الإنسان مخلوقًا لعبادة الله، فإن عمارة الأرض هي جانب من مفهوم العبادة الواسع الشامل، الذي يحقق خلافة الإنسان في الأرض...

وإذا اعتبرنا إقامة لا إله إلا الله في الأرض، أي إزالة الشرك، وإقامة التوحيد، وإقامة العدل الرباني والأخلاق الإيمانية جانبًا من "العمارة"، لأن الأرض لا تعمر حقًّا إلا تحت المظلة الإيمانية التي تقيها من الانحراف والفساد والشر. فإن الجانب الآخر هو العمارة المادية، باستخلاص طاقات السماوات والأرض وتسخيرها لخير الإنسان».

ثم قال: «ذلك إذن هو المفهوم الإسلامي للحضارة، حضارة "الإنسان" الخليفة في الأرض، المخلوق من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله... وعلى أساس هذا المفهوم قامت حضارة إسلامية متفرِّدة في التاريخ».

وذكر أن «أهم ما تميزت به تلك الحضارة أنها قامت بكل ما قامت به من عمارة الأرض وهي تستظل بظل العقيدة الصحيحة، بل تنطلق من منطلقاتها، فتعمر ما تعمر في الأرض وهي تؤمن بالله واليوم الآخر، وتحقّق مقتضيات الإيمان بالله واليوم الآخر من قيم وأخلاق ومبادئ، دون تناقض في حسّها بين هذا الأمر وذاك».

وأوضح المؤلف بعد ذلك أن الترف الذي أصاب الأمة –والذي جعلها تخلد إلى متاع الأرض القريب– كان يمثل بدء الاختلال في تاريخها، وبدء الانحسار، وبداية الانهيار.

وذكر أن سنة الله تقضي بتدمير المترفين: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾**.

وقال: «والسنن الربانية لا تحابي أحدًا من الخلق، مهما زعموا لأنفسهم من مسوّغات تسوغ المحاباة...

ولقد جرت السنة الربانية على الأمة الإسلامية حين جنحت إلى الترف وأخلدت إلى الأرض، لأن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول: **﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾**».

ولم يقف الأمر عند هذا كما ذكر ولكن «كان الترف القتّال من جانب، مصحوبًا -أو متبوعًا- برد فعل خطر على الجانب الآخر، هو الانزواء والانصراف عن العمارة المادية للأرض، وعن اتخاذ أسباب القوة المادية، بحجة أن الدنيا ملعونة لأنها تصرف الناس عن الآخرة. وبذلك كانت الحضارة تنهار من جانبيها في وقت واحد: الجانب الروحي والمعنوي -جانب القيم والأخلاق والمبادئ- يفسده الترف المنحلّ، والجانب المادي والحسيّ تفسده الصوفية المنصرفة عن تعمير الأرض».

وأوضح المؤلف أن هذا كان «من أسباب الضعف الذي أغرى أعداء الأمة الإسلامية، فجاءوا من الشرق والغرب يحاولون القضاء على دين الله».

ثم حدثت بذلك كما قال «موجة من الانحسار الشامل في كل ميدان».

ثم استطرد قائلاً: «واستمر هذا الواقع عدة قرون، والعالم الإسلامي ينحدر كل يوم، وأعداؤه يتقوون على حسابه، ويتحولون من الدفاع إلى الهجوم، ويقتطعون كل يوم قطعة من العالم الإسلامي، يستذلونها ويستعبدونها، ويحاولون القضاء على الإسلام فيها. ثم استيقظ العالم الإسلامي على الصدمة، حين وجد كل شيء في داخله ينهار ويقع في قبضة الأعداء».

وأوضح أن هذه الصدمة «أحدثت هزيمة داخلية عنيفة لم يفق منها "المسلمون المعاصرون" بعد، إلا الذين رجعوا إلى حقيقة هذا الدين، ومارسوا تلك الحقيقة في عالم الواقع. تلك الهزيمة الروحية هي التي مهدت في نفوسهم لتقبل الغزو الفكري بلا مناقشة ولا تدبر ولا تفكير».

وقال إن «من بين المفاهيم الضالة التي أدخلها الغزو الفكري في قلوبهم ورؤوسهم مفهوم الحضارة وعمارة الأرض. لقد توهموا -بتأثير الغزو الفكري- أنهم تأخروا لأنهم كانوا مسلمين».

وأكد أن هذا الوهم بعيد عن الحقيقة وأن «بعدهم عن حقيقة الإسلام لهو الذي أدى بهم إلى ذلك التخلف المعيب».

وعن نتيجة هذا الوهم قال: «ولكن هذا الوهم جعلهم يبحثون عن الحلول لا في إسلامهم -الذي انسلخوا منه- وإنما في الحضارة الغربية، أي في الجاهلية المعاصرة».

وفي ختام هذا الفصل أشار المؤلف إلى طريق الخلاص فقال: «المسلمون الحقيقيون عندهم الكثير الكثير يعطونه للبشرية الضالة في جاهلية القرن العشرين، فليأخذوا العمارة المادية للأرض من أي مكان يريدون، ولكن فليقيموها على المنهج الرباني، لينشؤوا الحضارة الحقيقية الأصيلة التي تستحق هذا الاسم.

فليأخذوا العلم والتقدم المادي والتكنولوجي، ولكن فليحددوا لأي شيء يستخدمون هذا كله.

في العبودية الذليلة للشهوات؟ في الاستغراق في الحياة الدنيا إلى حدِّ نسيان الآخرة؟ في عبادة الشيطان بدلا من عبادة الله؟

عندئذٍ لا هم سيخلِّصون أنفسهم من الهوان والذل، ولا هم يملكون أن يخلِّصوا البشرية من الضياع والتيه.

لكن يستخدمونه في إقامة المنهج الرباني، في إعادة شريعة الله لتحكم الأرض، في إقامة العدل الرباني كما يريده الله في إقامة الحياة على قاعدة أخلاقية في السياسة والاقتصاد وعلاقات المجتمع وعلاقات الأسرة وعلاقات الجنسين والفكر والأدب والفن.

بعبارة أخرى: يحققون غاية الوجود الإنساني، يحقِّقون لا إله إلا الله في عالم الواقع، يحقِّقون المفهوم الصحيح للعبادة؟

عندئذٍ سيخلِّصون أنفسهم مما حلَّ بهم، ويمدُّون يد الخلاص إلى البشرية الضالة الضائعة التي تبحث عن طريق الخلاص.

وليس ذلك على الله بعزيز: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾**».

«أضواءٌ علَى المُستقبَل»

أشار المؤلف في بداية هذا الفصل لما قد عرضه سابقًا عن بعض المفاهيم الرئيسية للإسلام والذي بين فيه «كيف كانت في حس الجيل الأول... وكيف تحوّلت في حس الأجيال المتأخرة تحولاً خطيرًا عن صورتها الصحيحة، وكيف أثر ذلك التحول في حياة المسلمين، فهبط بهم من الذروة التي كانوا عليها إلى الحضيض الذي يعيشونه اليوم، غثاء كغثاء السيل».

ثم تساءل: «ماذا بعد أن وصلت الأمور إلى هذه الصورة، وبعدت الأمة كل هذا البعد عن حقيقة الإسلام؟!».

وذكر أن الإجابة «قد تكفَل بها قدر الله الذي أخرج "الصحوة الإسلامية" إلى الوجود، **﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**.

وقال إن «الصحوة الإسلامية هي قدر الله الغالب، الذي قدَّره الله ليخرج به هذه الأمة من حالة الضياع التي تكتنفها، وتجعلها غثاءً كغثاء السيل، إلى الاستقامة على الطريق، ومدّ الجذور مرة أخرى، والقيام بدور جديد في حياتها، تنقذ به نفسها مما وقعت فيه من الهوان والذل، والشتات والتيه، وتطلق في الوقت ذاته بصيصًا من النور للبشرية الحائرة، لعلها تهتدي إلى الطريق».

وأوضح أن «الطريق أمام الصحوة ذاتها مملوء بالعقبات، مملوء بالأشواك، مملوء بالعثرات، مملوء بالوحوش الضارية تتلقف السائرين فيه لتفتك بهم أولاً بأول، لأنها تعلم جيدًا أنها إن لم تفتك بهم اليوم، فغدًا يسدُّون عليها الطريق».

وأكد على أن «المبشرات... أكبر من المعوِّقات، وقدر الله ماضٍ إلى غايته لا يقف في طريقه شيء».

ولكنه أكد أيضًا على أن هناك الكثير مما يجب أن تعرفه وتدركه هذه الصحوة.

فذكر أنها «في حاجة لأن تتعرف على عثرات الطريق لكيلا تتعثَّر، وعلى عقباته لكي تعد لها العدة اللازمة، كما لا بدَّ لها أن تعرف طبيعة الوحوش الضارية، لتعرف طبيعة المعركة معهم، وتعرف مجالاتها وميادينها».

وأردف بقوله: «وعليها أن تعرف قبل كل شيء عدة النصر في المعركة الضارية التي تقوم بينها وبين أعداء الله، والتي عليها أن تخوضها لا محالة رضيت أو كرهت، لأن أولئك الأعداء لا يمكن أن يرضوا عن الصحوة الإسلامية، ولا أن يكفوا عن قتالها».

ومن أهم ما ذكر في ذلك من معاني: أنه ينبغي على الصحوة أن تدرك «جيدًا أن المعركة ليست معركة هذه الجماعة ولا تلك، ولا معركة هذا العدو أو ذاك، إنما هي معركة الأمة الإسلامية جميعًا مع أعدائها جميعًا، فالخصومة قائمة أصلاً بين أعداء الله وبين الإسلام، حيثما كان الأعداء، وحيثما كان الإسلام».

وقال إن «مقتضى ذلك أن تعلم أن النصر لا يتم والمعركة قائمة بين الأعداء وبين جماعات منعزلة هنا وهناك، تستفرد بها الوحوش الضارية وتغتالها على تمكن، ولكنه يتم –بتوفيق الله– حين تصبح المعركة هي معركة "الأمة الإسلامية" على اتساعها، إزاء الأعداء المتكتِّلين في حرب الإسلام كتلة واحدة، وإن تفرَّقوا في كل شيء عدا ذاك».

وأكد على أنه لا يقصد بقوله الأمة كل فرد من أفرادها وإنما يقصد «أن توجد في هذه الأمة قاعدة صلبة –كالقاعدة التي قامت في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم– يبلغ من قوتها وصلابتها أن تحمل ضعاف الإيمان، والمعوّقين، والمبطئين، والمتثاقلين، والمنافقين، وتسير بهم جميعًا إلى هدفها، كما سارت القاعدة الصلبة التي ربَّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، ولم يعوّقها وجود هذه الفئات كلها عن النصر الحاسم على أعداء الله».

ومن الأشياء التي ذكر أنه ينبغي أن تدركها الصحوة جيدًا: «أن المعركة ليست مجرد معركة بين فريق من البشر وفريق، أو بين شعب من الشعوب وشعب، أو بين نوع من السلاح ونوع، إنما هي قبل ذلك كله –وأهم من ذلك كله– معركة بين عقيدة وعقيدة، ومنهج للحياة ومنهج».

وقال إن «مقتضى ذلك أن النصر لا يتم حتى تتمحَّض تلك العقيدة في نفوس أصحابها وتصفو، وتتخلّص من كل ما شابها من عناصر دخيلة عليها».

وذكر المؤلف أنه رغم أن الإسلام –بعد تمكنه في الأرض– واجه «كثيرًا من عداوات الجاهلية، مع الصليبيين مرة، ومع التتار مرة، ومع اليهود من قبل مرة، ولكنه لم يقف في وجه جاهلية الأرض كلها مجتمعة إلا مرتين اثنتين: الأولى وقت البعثة المحمدية وصدر الإسلام، والثانية في الوقت الحاضر».

وقال: «وهذا يستلزم...أن تكون العقيدة من النقاء في نفوس أصحابها، ومن رسوخ الإيمان بها، والتجرد لله بها، كما كانت في المواجهة الأولى، لتكون كفؤًا للجاهلية الواقفة أمامها، فضلاً عن التغلب عليها في نهاية المطاف».

ثم بيَّن أمرًا في غاية الأهمية بقوله: «أمر ثالث ينبغي أن تدركه الصحوة جيدًا، أن الجاهلية تواجه الإسلام اليوم وهي في قمة حضارتها المادية، وقمة افتتانها بتلك الحضارة، والمسلمون في درجة شديدة من التخلف في هذا المجال.

ومقتضى ذلك أن يواجه المسلمون تلك الحضارة بمثل ما واجه المسلمون الأوائل الحضارة الفارسية والبيزنطية وهما في أوج تمكنهما المادي، أي بالقيم الحضارية المواجهة تمامًا للحضارة الجاهلية».

وذكر أنه رغم الفارق الضخم بين قوة المسلمين آنذاك وقوة الجاهلية التي واجهتها إلا أن الإسلام قد انتصر

وقال: «انتصر بحسب السنن الجارية، لا بسنة خارقة، وإن كانت هذه وتلك جميعًا تتم بقدر من الله.

فمن سنن الله الجارية أن ينتفش الباطل في غيبة الحق، فإذا جاء الحق زهق الباطل...

ومن سنن الله الجارية أن يتدافع الحق والباطل ليتم إنقاذ الأرض من الفساد...

ومن سنته أن يكون للحق جنود يؤمنون به، لأن الحق المجرد من الجنود لا ينتصر، وأن يكون هؤلاء الجنود مخلصين لله، مترابطين على العقيدة، مؤتلفة قلوبهم عليها...

وأن يكون هؤلاء الجنود صادقي التوكل على الله...

وأن يكونوا مجاهدين في سبيل الله، إذا دعت دواعي الجهاد يقاتلون صابرين محتسبين».

ثم قال: «إن من سنته الجارية كذلك أن الباطل المنتفش بقوته المادية -في غيبة الحق- لا أصالة له لأنه باطل، ومع ذلك يمكّن في الأرض فترة من الوقت لحكمة يريدها الله، وبسنة يجريها الله: **﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

فإذا جاء الحق -وهو وحده صاحب الأصالة- وتمت له مقوماته، أي الجنود المؤمنون به، المخلصون في إيمانهم، المجاهدون الصابرون المحتسبون، فإنه ينتصر بما فيه أصالة، ولو كان أقل جنودًا وأقل عدة؛ لأنه يحمل القيم الأصيلة التي كتب الله لها البقاء والصلاحية».

وعن الموقف اليوم قال: «واليوم تقف الجاهلية... ذات الموقف مرة أخرى، قمة في القوة المادية والتقدم العلمي والمادي والتكنولوجي لم يبلغها أحد من قبل، ولا أصالة، فالأصالة هي الحق».

واستطرد قائلاً: «ولا ينفي هذا أن يكون لهذه الحضارة المجافية للحق منجزات ضخمة نافعة، كمنجزاتها العلمية والتنظيمية، فهذا من العطاء الرباني المتاح للبشر جميعًا مؤمنهم وكافرهم، وكان للجاهليات التاريخية كلها نصيب منه: **﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾**.

ولا ينفي كذلك أن تكون بعض الأفكار والقيم ذات قيمة ونفع، فإن النفس البشرية لا تتمحَّض للشر الخالص مهما بعدت عن الحق، ولا يتمحَّض مجموع الناس في الجاهليات للشر بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا".[1]

ولكن العبرة في النهاية –في صراع الحق والباطل– ليست بالمنجزات المادية مهما يكن من ضخامتها ونفعها، وليست بالأفكار والقيم الجزئية التي يمكن أن تكون في الجاهليات. إنما هي بالقاعدة التي يقوم عليها البنيان كله».

وبعد أن أكَّد المؤلف هذه السنة الجارية وأن مقوماتها وعناصرها قائمة في الجاهلية المعاصرة: «قوة مادية هائلة، وفراغ هائل في عالم القيم والمبادئ والأخلاق».

قال إن سريان هذه السنة يستلزم «أن يكون المسلمون في المواجهة قائمين على الشرط، كما كان المسلمون في المواجهة الأولى، فيتم النصر –بقدر من الله– كما تم أول مرة، ويتغيَّر وجه الأرض كما تغيَّر من قبل».

وأكَّد ذلك بقوله: «ولا شكَّ عندي من وعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم... أن ذلك سيحدث.

ولكن الصحوة ينبغي أن تدرك شرط النصر في تلك المواجهة.

إن المسلمين لن يسبقوا الجاهلية المعاصرة في التقدم العلمي والمادي والتكنولوجي والتنظيمي في الوقت الحاضر.

ولكنهم –مع ذلك– يملكون ما لا تملك الجاهلية اليوم ولا غدًا ولا في أي وقت، يملكون العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح، المنهج الشامل الكامل المتوازن المترابط، الذي أنزله الله العليم الخبير ليصلح به الأرض، ويصلح حياة الناس.

وحين يحقِّقون العقيدة الصحيحة في ذوات أنفسهم، ويحقِّقون المنهج الصحيح في واقع حياتهم، تجري السنة بقدر من الله، وينتصر الإسلام في المواجهة الحاضرة بينه وبين الجاهلية، ويتغيَّر وجه الأرض».

وأردف: «من أجل ذلك كله ينبغي للصحوة أن تقدر الأمر حق قدره، وتمنحه الطاقة اللازمة لإنجازه... إنه أمر الأمة الإسلامية بأكملها، وأمر البشرية كذلك، من شاء منهم أن يستقيم... أمر جاد لا تكفي فيه جهود هامشية مبعثرة، ولا يكفي فيه جهد يبذل لمجرد ممارسة الإسلام على أي مستوى من المستويات.

---

(1) أخرجه مسلم.

أمر يحتاج إلى كل الطاقة مجمعة، ويحتاج إلى محاولة الصعود إلى القمة التي صعد إليها المسلمون أول مرة، حين عوضت القيم الفذة، والممارسة الفذة لهاتيك القيم، كل الفروق المادية بين المسلمين وأعدائهم، وكتبت النصر لأصحاب القيم الفذة الأصيلة على أصحاب الباطل المنتفش بالقوة المادية وعبقرية التنظيم»

وقال: «إن على "الصحوة" في كل بلد إسلامي أن تربي القاعدة الصلبة على المستوى الفائق، ثم تدعو إليها الجماهير».

وأشار «هنا إلى أمر أساسي، سواء في بناء القاعدة أو في دعوة الجماهير» فقال: «إنه لا بدَّ أولاً من تصحيح المفاهيم. إذ كيف تبنى القاعدة على المفاهيم الخاطئة للإسلام؟!».

وقال خاتمًا كتابه –حفظه الله– بقوله: «حين تصحَّح المفاهيم بالفعل، وتتربى على المفاهيم الصحيحة قاعدة صلبة، تساندها الجماهير المؤمنة الواعية التي تمارس الإسلام في عالم الواقع. عندئذٍ يتحقق الوعد الذي وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة". [1]

وعندئذٍ يتغيَّر وجه الأرض.

وتتحقَّق للإسلام جولة جديدة، يخرج فيها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

تمَّت بحمد الله هذه القراءة

الثلاثاء 15 شوال 1432هـ

الموافق 2011/9/13م

(1) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان.

الفهرس